

بلزاك

الملهاة الانسانية

أسرار الأميرة دي كادينيان

قصة من الحياة الباريسية

ڤاسينو كان

قصة من الحياة الباريسية

ترجمة

ميشيل خوري

روايات بلزاك ٢

بلزاك

الملهاة الإنسانيّة

أسرار الأميرة دي كادينيان

قصةٌ من الحياة الباريسيّة

فاسينو كان

قصةٌ من الحياة الباريسيّة

ترجمة

ميشيل خوري

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

العنوان الأصلي للكتاب :

BALZAC

LA COMEDIE HUMAINE

LES SECRETS DE LA PRINCESSE DE CADIGNAN

FACINO CANE

بلـــزاك ؛ La comedie humaine / = الملهـــاة الانســانيــة
ترجمــة ميشيل خــوري . ــ دمشــق : وزارة الثقافــة ، ١٩٩٩ . ــ
١١٢ ص ؛ ٢٤ سم . ــ (روايــات بــلزاك ؛ ٢٠) .

المحتوى : أسرار الأميرة دي كادينيان ، فاسينوكان) .

١ ــ ٨٤٣ ف ب ل ز م ٢ ــ ٨٤٣,٠٠٩ ب ل ز م
٣ ــ العنوان (١) ٤ ــ العنوان الموازي ٥ ــ العنوان (٢)
٦ ــ العنوان (٣) ٧ ــ بلزاك ٨ ــ خوري ٩ ــ السلسلة

مكتبــة الأســد

الايــداع القــانوني : ــ ٢٢٧٠ / ١٢ / ١٩٩٩

روايات بلزاك

« ٢٠ »

اسرار الأميرة دي كادينيان

إلى تيوفيل غوتيــه

بعـد كوارث ثورة تموز التـي دمرت عـدة ثروات ارستقراطية مدعومـة من البلاط ؛ كان من مهارة السـيدة الأمـيرة دي كادينيان ان نسبت الى الأحداث السياسية ما أصابها من خراب ناتج عن تبذيرها ؛ وكان الأمير قد غادر فرنسة مع العائلة المالكة تاركاً الأمـيرة في باريس ، مصونة من ملاحقة الدائنين بسبب غيابه لأن الديون التي لا يكفي بيع الأملاك لسدادها ، لا تقع إلا عليه ، وقد صودر دخل حق البكورية[1] ؛ اخيراً كانت قضايا هذه العائلة الكبيرة لا تقل سوءاً عن حالة الفرع البكر من آل بوربون . هـذه المراة التي اشتهرت باسمها الأول : الدوقـة دي موفرينيوز[2] صممت ، بحكمة ، العيش منسية في عزلة عميقة ؛ وكانت باريس تتعرض لتيار من الأحداث المدوخة بحيث غيرت الدوقة دي موفرينيوز المتخفية تحت اسم الأميرة دي كادينيان ، وهو مجرد تبدل في الاسم يجعلها مجهولة من قبل القوى الفاعلة في المجتمع التي أتت بها ثورة تموز ، فلكأن الأميرة صارت غريبة في بلادها .

إن لقب الدوق في فرنسة يفوق جميع الألقاب الأخرى حتى لقب الأمير ، بالرغم من ان هذه الألقاب لا تعني شيئاً في فرضية الشعارات الخالية من كل سفسطة ، وتوجـد مساواة تامـة بين النبلاء ، هـذه

---

(١) حق البكورية : مبلغ غير قابل للتصرف يرفع من املاك الزوجين لمصلحة الابن البكر ، دون أن يفقد نصيبه من الميراث عند توزيعه وتقاسمه .

(٢) الدوقة دي موفرينيوز هي بطلة رواية « حجرة العاديات القديمة » التي كتبها بلزاك في العام ١٨٣٨ أي قبل عام من هذه القصة .

لا تعني هذه الالقاب شيئاً ، وتوجد مساواة تامة بين النبلاء ، هذه المساواة الرائعة حافظ عليها بعناية البيت المالك في فرنسة ، وما تزال موجودة حتى الآن ، على الأقل اسمياً ، بفضل حرص الملوك على أن يعطوا لأبنائهم لقب كونت البسيط في درجته . بفضل هذا النظام تمكن فرانسوا الأول من سحق بهاء هذه الألقاب المفخمة التي اعطاها الأمبراطور شارك كنت واستعاض عنها الملك بالتوقيع : فرانسوا سيد ڤانڤ . وقد فعل لويس الحادي عشر أكثر من ذلك عندما زوج ابنته لنبيل لا لقب له ، هو بيير دي بوجو ؛ كما أن النظام الاقطاعي قد حطم في زمن لويس الرابع عشر بحيث أصبح لقب الدوق في عهده رتبة الشرف العليا في الارستقراطية، واللقب الذي يتمناه الجميع، غير أن عائلتين أو ثلاث عائلات في فرنسة ممن كانت اماراتهم ذات ملكيات كبيرة في السابق وضعت فوق لقب الدوقية ؛ وبيت كادينيان الحائز على لقب دوق دي موفرينيوز لأبنائه البكر ، بينما الأبناء الباقون يسمون ببساطة الفارس دي كادينيان هو من هذه العائلات الاستثنائية ، وكما في السابق لدى أميرين من أمراء بيت روهن ، فإن لأمراء كادينيان حق توارث اللقب فيما بينهم . ويمكنهم توظيف حاشية ونبلاء في خدمتهم .

هذا الشرح ضروري لتجنب النقد الاحمق من أولئك الذين لا يعرفون شيئاً من الأشياء الكبرى لعالم يقولون انه سائر الى النزول وكثير ما الاشخاص يدفعون الى ذلك دون فهمه .

كان لآل كادينيان شعار من ذهب يضم خمسة شهب يجمعها رباط مخضّر مع كلمة « انني اتذكر » كرمز ، والتاج مقفل دون حواف أو سجف مهدبة ، إن عدداً كبيراً من الأجانب الذين يفدون الى باريس حالياً ذوو جهل مطبق في علم النبالة ، وهم يبدؤون بإطلاق لقب الأمير وكأنه زي شائع ! والواقع انه لا يوجد أمراء حقيقيون إلا أصحاب الملكيات الكبيرة ، ممن يخاطبون « بصاحب السمو » ان كره الطبقة النبيلة الفرنسية للقب أمير ، والأسباب التي دفعت لويس الرابع عشر لإعطاء الدرجة السامية الأولى للقب الدوق منعت فرنسة من المطالبة بلقب صاحب السمو لبعض الأمراء الموجودين فيها باستثناء أمراء نابوليون ،

وهذا هو السبب لاعتبار أمراء كادينيان ـ من الناحية الاسمية ـ في وضع أدنى من بقية أمراء القارة .

كان أفراد مجتمع سان جرمن يحيطون الأميرة بتقدير محترم لاسمها ، لرفعته الدائمة وللبلايا التي حلت بها ولا يتطرقون اليها ولجمالها وهو الشيء الوحيد الذي احتفظت به من الرخاء الزائل وشكر لها هذا المجتمع ، وهي زينته لجوءها إلى الاحتجاب بانحباسها في بيتها ، أكثر منه من اية امراة اخرى ، تضحية كبيرة ، فالأشياء الكبرى يشعر بها دائماً بحرارة في فرنسة ، بحيث أن الأميرة قد كسبت باعتزالها كل ما كانت خسرته لدى الراي العام وهي ما تزال في سنائها واشراقها ، فهي لم تكن تزور الا واحدة من اقدم صديقاتها ، هي المركيزة دي اسبار ، فلا تذهب الى الاجتماعات الكبرى ولا الى الحفلات ، بل ان الاميرة والمركيزة تتزاوران صباحاً وخفية تقريباً وعندما تأتي الأميرة للعشاء لدى صديقتها ، تغلق المركيزة بابها ، وكانت السيدة دي اسبار شديدة الاعجاب بالاميرة ، فبدلت مقصورتها في مسرح الايطاليين ، وتخلت عن الطابق الاول ، لتأخذ شرفة في الطابق الارضي ، بحيث يمكن للسيدة دي كادينيان أن تأتي الى المسرح دون أن تثير انتباه أحد ، وتغادره خفية .

قليلات هن النساء القادرات على ان يحافظن على رهافة ذوق تحرمهن من متعة جرّ منافسةٍ لهن وراءهن بعد سقوطها ، أو من المنّ بانعامهن عليها . لذلك وفرت الاميرة على نفسها نفقات الزينة الباهظة ، بالتنقل خفية في عربة المركيزة ، بشكل لم تكن لترضى به لو كان في العلانية ، وما من أحد يعرف الأسباب الدافعة للسيدة دي اسبار للتصرف بهذه الطريقة مع الأميرة دي كادينيان ؛ لكن تصرفها كان سامياً ، واقتضى لمدة طويلة عالماً من الأشياء الصغيرة لو نظر الى كل منها بمفرده لبدا تافهاً لكنها بمجوعها تبدو كبيرة .

كانت ثلاث سنوات ، في العام ١٨٣٢ ، قد غمرت بالنسيان مغامرات الدوقة دي موفرينيوز وبيّضت صفحتها بحيث يجب بذل جهود لتذكر الظروف الجسيمة التي سادت حياتها السابقة . فمن هذه الملكة التي

عبدها العديد من العشاق وامكن لطيشها أن يملأ عدة روايات ، لم يبق إلا امرأة ما تزال محافظة برقة على جمالها ، وهي الآن في سن السادسة والثلاثين ، لكنها تبدو في الثلاثين ، بالرغم من أنها أم للدوق جورج دي موفرنيوز ، وهو شاب في التاسعة عشر من عمره ، جميل كانطينوس وفقير كايوب، ويمكنه أن يلقى الحظوة لدى النساء ، لكن أمه تريد أن تزوجه من امرأة غنية ، وربما كان هذا المشروع هو سر المودة القائمة بينها وبين المركيزة التي يعتبر صالونها الأول في باريس ، حيث يمكنها أن تختار يوماً من بين الوريثات عروساً لجورج . وكانت الأميرة ترى أن لا بد من إنقضاء خمس سنوات قبل تزويج ابنها ، وستكون سنوات عجفاء مملة ، إذ يجب لانجاح الزواج الجيد المحافظة على سلوك تسوده الرزانة.

كانت الأميرة تسكن في الطابق الأرضي من دارة في شارع ميرومسنيل، بسعر معتدل ، وقد استفادت من بقايا بهائها وبذخها ، حيث بقيت اناقتها كسيدة كبيرة جلية ، وقد احاطت نفسها بأشياء جميلة تدل على وجود سام . فعلى حافة مدفأتها صورة مصغرة لشارل العاشر من اعداد السيدة دي ميربل[1] ، وقد نقشت اسفلها هذه الكلمات «أعطية من الملك» كما علقت على الحائط صورة زوجة شقيق الملك وقد كانت بصورة خاصة فائقة في معاملتها ؛ وعلى منضدة يبرق ألبوم غالي الثمن ، بحيث أن ما من امرأة بورجوازية ممن يتفاخرن حالياً في مجتمعنا الصناعي النكد تجرؤ على اقتنائه ، فهذه الجرأة تصور المرأة بشكل مدهش . كان الألبوم يحوي صوراً من بينها نحو ثلاثين صديقا حميما ممن اعتبرهم المجتمع عشاقاً لها ؛ وكان هذا العدد افتراء ، ولو انه اقتصر على عشرة ، وفقاً لقول المركيزة دي اسبار ، لكان هذا الاغتياب لطيفاومقبولا. ففي الألبوم صور : مكسيم دي تراي ، ودي مارسي ، ودي راستنياك ،

---

(1) هي ليئزينسكارو ، زوجة عالم النبات شارل فرنسوا ميربل (١٧٩٦ ـ ١٨٤٩) وكانت رسامة صور شخصية ، ورسمت لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، وارتبطت بصداقة متينة مع الدوق فيتز ـ جمس فرسمته في لوحة « تعتبر تحفة فنية » في راي بيير لاروس .

والمركيز دي اسفرينيون ، والجنرال مونريفو ، والمركيز دي رونكرول ، والمركيز دي أجود ابنتو ، والأمير غالاتيون ، والأدواق الشباب : دي غراتليو، ودي ركوره، ولوسيان دي روبمبره الشاب الجميل ، والفيكونت الشاب دي سريزي ؛ وكل هذه الصور قد رسمت بمهارة من قبل اشهر الرسامين(١) ؛ وبما أن الأميرة لم تعد تستقبل إلا اثنين أو ثلاثة من هذه المجموعة ، فانها تطلق بمرح على هذا الألبوم « مجموعة اخطائها » . إن الحظ العاثر قد جعل من هذه المرأة أماً طيبة . فخلال السنوات الخمسة عشر من عودة الملكية تمتعت بحيث لم يكن لديها مجال للتفكير بولدها ؛ لكن بعد ان لا لجأت الى العزلة، فكرت هذه الأنانية الشهيرة بأن عاطفة الأمومة المنطلقة الى ابعد حدودها ستصبح بالنسبة لحياتها الماضية غفراناً يؤكده أصحاب المشاعر الرقيقة الذين يغفرون كل شيء لأم ممتازة . وكان يزداد حبها لابنها بعد أن لم يعد لديها شيء آخر تحبه ؛ والواقع أن جورج دي موفرنيوز هو أحد هؤلاء الأولاد الذين يرضون غرور أم ، وهكذا قدمت الأم من أجله كل تضحية : فهيأت له اسطبلا ومقر عربة وشقة تطل على الشارع تتألف من ثلاث غرف مؤثثة بذوق ، وحرمت نفسها من أشياء عديدة لتحتفظ له بحصان ركوب ، وحصان جر وخادم، ولم تحتفظ لنفسها إلا بوصيفتها ، واحدى خادمات المطبخ القديمات كطباخة ؛ وكان على ساعي الدوق أن يقوم بمهام شاقة قليلا ، فتوبي، الساعي القديم للمرحوم بودنور يمثل مهزلة مجتمع الظرف مع هذا الأنيق المفلس ، فهذا الساعي البالغ من العمر خمس وعشرين سنة يبدو دائماً وكأنه في الرابعة عشر . وكان قادرا على أن يفرجن الخيول وينظف العربات ويتبع معلمه ، ويرتب الشقة ويبقى في بهو الأميرة ليعلن عن قدوم الزائر في حال توقع زيارة هامة .

لو نفكر فيما كانت عليه، في عهد عودة الملكية ، دوقة دي موفرنيوز الجميلة ، احدى ملكات باريس ، ملكة رائعة ربما لقّن مقامها الباذخ درساً لأغنى نساء لندن ، فاننا نتأثر لرؤيتها في قوقعتها البسيطة في شارع ميرومسنيل على بعد خطوات من قصرها الواسع الذي لم تتمكن اية

---

(١) هم مجموعة من المتانقين الذين « ابتكرهم » بلزاك ووضع مغامراتهم ببراعة في مشاهد من الحياة الباريسية .

ثروة من سكناه والذي هدمته مطارق المضاربين . ثلاثون خادما لم يكفوا سابقا لخدمة هذه المرأة بشكل ملائم ، هذه المرأة التي امتلكت اجمل صالونات الاستقبال في باريس ، واجمل الشقق ، واقامت اروع الاحتفالات ؛ اصبحت تعيش الآن في شقة من خمس غرف : بهو ، وقاعة طعام ، وصالون ، وغرفة نوم ، وغرفة حمام ، ولم يبق لديها من الخدم إلا امرأتان .

« آه إنها رائعة في معاملتها لابنها ، قالت المركيزة دي اسبار ، هذه الثرثارة اللطيفة ، وهي مدهشة بدون تشدّق ، إنها سعيدة . من كان يعتقد ان هذه المرأة الخفيفة قادرة على هذا التصميم الذي اتبعته بعناد، وهكذا فان بطريركنا الطيب ، الذي شجعها بدا في غاية الوفاء معها ، وقد اقنع كونتة سنك ـ سني بزيارتها .

فلنعترف بأنه يجب أن تكون المرأة ملكة لتعرف كيف تتنازل عن العرش ، ولتنزل بنبل من وضع سام لم تفقده كلياً ؛ ووحدهم أولئك الذين يعرفون انهم لا شيء في ذواتهم يبدون الأسف عندما يسقطون ، أو يدمدمون ويعودون الى ماض يعرفون انه لن يتكرر وأن الوصول لا يحدث مرتين ؛ وقد أجبرت أن تستغني عن الأزهار النادرة التي تعودت أن تعيش بينها ، والتي تبرز جيدا شخصيتها إذ يستحيل الا نقارنها بزهرة فاختارت أن تحيا في طابق ارضي حيث يمكنها أن تستمتع بحديقة صغيرة جميلة ، مليئة بالشجيرات حيث العشب الأخضر دائما يبهج عزلتها الهادئة .

كان بامكانها الحصول على دخل سنوي يقارب اثنتي عشر الف ليرة، وهذا الدخل الزهيد يتألف من مساعدة سنوية تقدمها دوقة دي نافارين العجوز عمة الدوق الشاب ؛ وهي مساعدة دائمة حتى يوم زواجه ، ومن مساعدة أخرى ترسلها الدوقة أوكسل من عمق ارضها النائية حيث تقتصد كعادة الدوقات العجائز اللواتي لا يعتبر هارباغون (١) إلا تلميذاً بالنسبة لهن .

---

(١) هارباغون : الشخصية في تمثيلية البخيل لموليير .

كان الأمير يعيش في الغربة منصرفاً الى خدمة أسياده المنفيين ، يقاسمهم حظهم التعس ، ويقوم بعمله باخلاص منقطع النظر ، وربما كان هو الأكثر ذكاء من كل حاشيتهم .

كان مركز الأمير دي كادينيان يحمي امراته في باريس ، ولديها قام المارشال الذي ندين له بغزوة افريقية بمباحثاته مع قادة الشرعية عندما قامت « السيدة » بمحاولتها الانقلابية في ڤنديه (١) ، فعزلة الأميرة وعوزها لا يثيران ريبة الحكومة الحالية .

باحساس الأميرة باقترابها من سن الأربعين ، سن البعد الرهيب عن الحب حيث لا يبقى للمرأة إلا الشيء القليل ، انصرفت الى دنيا الفلسفة ، فأخذت تقرأ وهي التي كانت خلال ست عشرة سنة تظهر الرعب الكبير من التطرق الى الأشياء الجدية ، فحل الأدب والسياسة مكان التقى والورع الذي تعتبره النساء الأخريات ملجأهن الأخير ، وقد تردد في الاجتماعات المخملية أن ديان تريد أن تؤلف كتاباً ؛ ومنذ أن تحولت الأميرة من امرأة جميلة فتانة الى امرأة روحانية بانتظار أن تتحول الى ذلك كلياً ، فقد جعلت من الاستقبال لديها شرفاً سامياً يميّز هذه الشخصية الفائقة ؛ وفي تمويه على اهتماماتها السياسية ، أمكنها أن تخدع أحد عشاقها القدامى وهو دي مارسي ، الشخصية الأكثر تأثيرا في السياسة البورجوازية التي تقلدت الحكم في تموز ١٨٣٠ ، فكانت تستقبله أحيانا في المساء ، بينما المارشال وعدة شخصيات من انصار الشرعية يتداولون بصوت منخفض في غرفة نومها لاستعادة الملك الذي لا يمكن تحقيقه دون الاستعانة بالفكر ، وهو العنصر الأوحد في النجاح الذي ينساه المتآمرون . إنه انتقام جميل تقوم به امرأة جميلة في أن تتلاعب بوزير أول تستخدمه حجاباً في مؤامرة ضد حكومته بالذات .

---

(١) المرشال بورمون هو قائد الحملة التي استولت على الجزائر في العام ١٨٣٠ . و « السيدة » هي الدوقة « دي بري » ابنة فرانسوا الأول وكانت محاولتها الانقلابية الفاشلة في العام ١٨٣٢ .

هذه المغامرة الجديرة بأيام « فتنة المقلاع »(١) المشهودة كانت موضوعا لأجمل رسالة معنوية في العالم وجهتها الأميرة الى الدوقة دي بري حول هذه المشاورات ؛ وقد تمكن الدوق دي موفرينيوز أن يذهب الى فنديه وأن يعود سراً دون أن يتعرض للشبهات ولكن ليس من دون تعرضه للأخطار التي أحاطت بالسيدة دي بري التي طلبت إليه العودة بعد أن لاحظت بأسف فشل فتنتها ؛ ولربما كانت يقظة هذا الشاب المتحمسة قد احبطت الخيانة ؛ وأياً كانت أخطــاء الدوقة دي موفرينيوز في أعين المجتمع البورجوازي ، فمن المؤكد أن سلوك ابنها قد غفر لها في أعين المجتمع الارستقراطي إذ تجلى النبل والكبر في المخاطرة بالابن الوحيد والوريث للبيت التاريخي .

إن بعض الأشــخاص المتصفين بالبراعة يصححون اخطاء حياتهم الخاصة بخدمات يقدمونها للحياة السياسية والعكس بالعكس ؛ لكن مثل هذا الحساب لم يكن في بال الأميرة دي كادينيان ، وربما لم يكن في خاطر جميع من يتصرفون على هذا المنوال ، إنما هي الأحداث تكون في معظمها وفق هذا الاتجاه المعكوس .

في احد أوائل الأيام الجميلة من شهر أيار ١٨٣٣ ، كانت المركيزة دي اسبار والأميرة تدوران ، ولا يمكن أن نقول تتنزهان في الممر الوحيد الذي يحيط بالبساط العشبي للحديقة ، نحو الساعة الثانية بعد الظهر حيث أشعة الشمس ساطعة وانعكاساتها على الجدران تخلق جواً دافئاً في هذا الحيز الضيق الذي تعطره الأزهار المهداة من المركيزة .

قالت السيدة دي اسبار للأميرة : سنفقد قريبا دي مارسي ، ومعه سيضيع أملك الأخير في ثروة تؤمنينها للدوق دي موفرينيوز ، إذ أن هذا السياسي الكبير(٢) ، منذ أن لعبت به لعبتك الأخيرة ، وهو مفتون بك .

---

(١) فتنة المقلاع : فتنة قامت ضد مازارين في فترة ١٦٤٨ ـ ١٦٤٩ قبل أن يبلغ لويس الرابع عشر سن البلوغ واستخدم فيها الثائرون على الحواجز مقلاع الرمي بالحجارة لكن ثورتهم انتهت الى الفشل .

(٢) يذكر دي مارسي « بصفته سياسيا كبيراً » بكازيمير بيريه الذي غدا رئيس وزراء بعد ثورة تموز ١٨٣٠ ؛ وتوفي العام ١٨٣٢ .

أجابت الأميرة : إن ابني لن يتراجع ابدا عن نصرة الفرع الملكي الثاني وإن مات جوعاً ، وإن اضطررت للعمل من أجله ، لكن برت سنيك ـ سيني لا تكرهه .

ـ قالت السيدة دي اسبار : إن الأولاد ليست لديهم الارتباطات ذاتها التي يتقيد بها ذووهم .

ـ قالت الأميرة : كفانا حديثا في هذا الموضوع ، فاذا لم أتمكن ان اقنع الكونتة دي سنيك ـ سيني فسأزوّج ابني بابنة احد الحدادين ، كما فعل هذا الصغير من آل اسفرينيون .

ـ وهل احببت اسفرينيون ؟ سألت المركيزة .

ـ اجابت الأميرة بحزم : كلا فسذاجة دي اسفرينيون كانت نوعا من الحماقة الريفية وقد لاحظتها متأخرة جدا او ـ إن اردت ـ مبكرة جـداً .

ـ ودي مارسي ؟

ـ دي مارسي تصرّف معي كأنني لعبة ، وكنت ما ازال صغيرة . ونحن لانحب ابداً الرجال الذين يتصرفون كأساتذتنا ، أنهم يدعكون زهواتنا الصغيرة .

ـ وهذا التعس الصغير الذي شنق نفسه ؟

ـ لوسيان ؟ كان في الجمال كانطينوس . وشاعرا كبيرا ، لقد أحببته باخلاص ، وأمكنني أن أكون سعيدة معه ، لكنه كان يحب فتاة ، وقد تخليت عنه للسيدة دي سريزي ، ولو أراد أن يحبني ، هل كنت اتخلى عنـه ؟ !

ـ يا للغرابة لقد اصطدمت باحدى الاستيرات !

ـ قالت الاميرة : كانت فعلا أجمل مني، لكن هاهي ذي ثلاث سنوات وانا منصرفة الى عزلة تامة .

ثم استأنفت بعد وقفة قصيرة : حسن ، هذه العزلة الهادئة ليس فيها ما يتبعني ، ولك وحدك أتجرأ على القول انني اشعر هنا بالسعادة ، متأثرة بالمعرفة السطحية دون ان يشغل هذا التأثر القلب . لقد وجدت جميع الرجال ، الذين عرفتهم ، صغاراً ومساكين وسطحيين ، ما من واحد منهم سبّب لي أي اندهاش ؛ كانوا كلهم خاليين من البراءة، والكبر، والذوق ؛ كم وددت لو التقيت بواحد أثّر في شخصيته .

سألت المركيزة : أتكونين إذاً ، يا عزيزتي ، مثلي ، لم تصادفي أبدا الحب رغم محاولاتك أن تحبي .

ـ « ابـداً » أجابت الأميرة مقاطعة المركيزة وهي تضع يدها على دراعها ؛ ثم توجهت الاثنتان لتجلسا على مقعد من خشب بسيط تحت عريشة ياسمين تجدد إزهارها ، وكل منهما قد صرحت بما في نفسها من الكلمات التي ترغب بقولها النساء في مثل عمرهن . تابعت الاميرة : مثلك ، ربما أحببت أكثر مما احبَّت النساء الاخريات ، لكن عبر الكثير من المغامرات ، أشعر أنني لم الق السعادة ، لقد قمت بحماقات كثيرة ، لكنها كانت ذات هدف ، وهذا الهدف كان يتراجع بمقدار ما كنت اتقدم ! في قلبي الهرم ، أشعر ببراءة لم تنخدش ، نعم ان تحت العديد من التجارب ، يكمن حب اول يمكن أن ينخدع ، وبالرغم من العديد من المتاعب والذبول ، فانني ما أزال أشعر بالشباب والجمال يمكننا أن نحب دون أن نكون سعداء ، ويمكننا ان نكون سعداء دون ان نحب ؛ لكن أن نحب ونلقى السعادة ، أن نجمع هاتين المتعتين الانسانيتين الكبيرتين هو الاعجوبة ، وهذه الاعجوبة لم تكتمل بالنسبة لي .

ـ « وكذلك بالنسبة لي » قالت السيدة دي اسبار .

ـ ان حسرة كبيرة تلاحقني في عزلتي : لقد تسليت لكنني لم احب

ـ أي سر لا يصدق ! هتفت المركيزة .

ـ آه ياعزيزتي ، لكن هذه الاسرار لايمكن ان نبوح بها إلا لانفسنا فما من أحد في باريس يصدقنا .

ـ « ولو لم نتجاوز سن السادسة والثلاثين لم نعترف بها على الارجح » اضافت المركيزة .

ـ نعم ، عندما كنا في زهوة الشباب كان يتملكنا غرور أحمق ، إننا نشبه أحياناً أولئك الشباب المساكين الذين يسوكون اسنانهم ليوهموا الناس بأنهم تغدوا جيداً .

ـ اخيراً ها نحن ، ويبدو لي اننا مانزال في حيوية تؤهلنا لاعادة الكرة » قالت السيدة دي اسبار بغنج لطيف وهي تقوم بحركة براءة جذابة .

استأنفت الاميرة بعد فترة توقف : عندما ذكرت لي في يوم فائت أن بياتريس قد هربت مع كونتي ، فكرت في ذلك كل الليل ، يجب أن تكون سعيدة جدا لتضحي بمقامها ومستقبلها ، وتتخلى عن كل شيء في المجتمع .

قالت السيدة دي اسبار : انها حمقاء تافهة ، لقد سرت الانسة دى توش لانا تخلصت من كونتي ؛ ولم تدرك بباتريس كم يشير إلى عدم كفاءة كونتي هذا الهجر ، تقوم به امرأة سامية ، لم تجرب ابدا أن تدافع عن سعادتها المزعومة .

ـ ستكون اذاً تعيسة ؟!

ـ هي كذلك الان . ما مغزى أن تترك امرأة زوجها ؟ أليس هذا اعترافا من المرأة بعجزها .

ـ اذا فأنت تعتقدين أن السيدة دي روشفيد لم تتصرف عن رغبة في الاستمتاع بهدوء بحب حقيقي ، هذا الحب الذي ماتزال مباهجه حلماً بالنسبة لنا .

كلا ، لكنها قلدت السيدة دي بوسيان ، والسيدة دى لانجه اللتين ـ والكلام فيما بيننا ـ في عصر اقل ابتذالا من عصرنا ـ كانتا مثلك ايضا من الوجوه الكبيرة أمثال آل فالير ، وآل مونتسبان ، وديان دي بواتيه ، ودوقات اتامب وشاتورو .

ـ اوه ! لم يبق الا الملك يا عزيزتي . آه ! كم أود لو استحضر أرواح هؤلاء النسوة واسألهن ...

ـ قالت المركيزة مقاطعة الاميرة : لا ضرورة لانطاق الموتى فنحن نعرف نساء سعيدات وهن على قيد الحياة . إنها المرة العشرون التي أشرع فيها في حديث ودي حول هذه الانواع من الاشياء مع كونتة مونكورنة ، المرأة الاكثر سعادة في هذه الدنيا ، منذ خمسة عشر عاما مع اميل بلونده(١) ما من خيانة ، وما من فكرة ملنوية ، وهما الان وكأنهما في يوم حبهما الاول ، ولكننا كنا دائما نضايق ، ويقطع علينا الحديث في اللحظة الاكثر أهمية ؛ في هذا الشغف الكبير كانشغاف راستنياك والسيدة دي نوسنجن والسيدة دي كامب ، قريبتك ، وأوكتافها سر ، وهذا السر نجهله يا عزيزتي ، ان المجتمع يمنحنا الشرف الكبير باعتبارنا من الماجنات الجديرات ببلاط الوصي على العرش ، ونحن بريئتان كتلميذتين داخليتين صغيرتين .

ـ انني سأكون سعيدة لو كانت براءتنا كذلك ، هتفت الاميرة بتهكم ، انما هي أسوأ . وفي ذلك ما يدعو للخزي . ماذا تريدين ؟ اننا نقدم هذه الإماتة الجسدية لله تكفيرا عن مساع غير مجدية ، اذ من غير المحتمل ، يا عزيزتي ، أن نجد في خريف العمر الزهرة الجميلة التي فاتتنا خلال الربيع والصيف .

ـ ليس هذا هو الموضوع ، قالت المركيزة بعد وقفة مليئة بالتأملات المتبادلة ، فنحن مازلنا على قدر من الجمال يوحي بالهوى ، ولكننا لن نقنع أبدا أي انسان ببراءتنا او بفضيلتنا .

---

(١) اشار بلزاك في روايات ١٨٣٨ و ١٨٣٩ وخاصة حجرة العاديات القديمة ، وابنة حواء ، ورجل كبير من المقاطعات في باريس إلى علاقة إميل بالسيدة دي مونكورنه .

(٢) تذكرة برواية الاب غوريو ، وقصتي بيت نوسنجن ، والسيدة فيرمياني .

ـ لو أن الامر كذبة لزينت سريعا بالتعليقات ، وخططت لها التحضيرات الجميلة التي تجعلها قابلة للتصديق والالتهام كثمرة لذيذة لكن الاقناع بحقيقة ! آه ! لقد أعيا ذلك الرجال العظام » . أضافت الأميرة مع احدى هذه الابتسامات الناعمة الجديرة بفرشاة ليوناردو دي فنسي لرسمها .

ـ « ان الاغبياء يحبون جيدا أحيانا » تابعت المركيزة :

ـ « لكن ، حتى الاغبياء ليست لديهم سرعة التصديق في هذا الأمر لاحظت الاميرة .

ـ أجابت المركيزة ضاحكة : أنت على حق ، لكن من نبحث عنه لن يكون أحمق ولا موهوبا فقط . انما لنحل هذه المشكلة يلزمنا رجل عبقري ، ففي العبقرية وحدها ايمان الطفولة والدين والحب ، وهي التي ترضى بعصب العينين . لاحظي كَنَا اليسر والدوقة دي شوليو . لو أننا ـ أنت وأنا صادفنا رجالا عباقرة فربما بدوا بعيدين جدا عنا ، ومنشغلين بأمور كثيرة ؛ ولبدونا نحن كثيرات الطيش ، أو الانجراف أو الانشغال .

ـ آه ! مع ذلك أريد جيدا الا اغادر هذا العالم قبل أن أعرف مسرات الحب الحقيقي ، هتفت الاميرة .

ـ قالت السيدة دي اسبار : لا يكفي أن توحي به ، انما يجب أن تبرهني عليه . لقد رأيت كثيرا من النساء لم يكن الا ذريعة للهوى بدلا من أن يكن في آن واحد السبب والنتيجة .

ـ كان الهوى الاخير الذي أوحيت به شيئا جميلا ومقدسا وذا مستقبل واعد ، فقد ساقت الصدفة لي في تلك المرة ، هذا الرجل العبقري الذي يلزمنا ، والذي يصعب اقتناصه ، لان النساء الجميلات اكثر عددا من الرجال العباقرة ، لكن الشيطان تدخل في المغامرة .

ـ قصّي علي اذا هذا يا عزيزتي ، فهو شيء جديد بالنسبة لي .

ـ لم الحظ هذا الهوى الجميل الا في منتصف شتاء ١٨٢٩ ، ففي كل يوم جمعة ، في الاوبرا ، كنت الاحظ في القاعة شابا في نحو الثلاثين من العمر ، قد اتى خصيصا من أجلي ، يشغل دائما المكان ذاته ، ينظر الي بأعين من نار ، انما ببعض الغم لما بيننا من فارق ، أو ربما لتعذر نجاح مبتغاه .

ـ يا للفتى المسكين ! ان الحب يعمي البصيرة أحيانا ، قالت المركيزة

ـ كان يسرح خلال كل استراحة في البهو ، تابعت الاميرة وهي تبتسم السخرية المحببة التي قاطعتها بها المركيزة ثم استأنفت : « في مرة أو مرتين ليراني ، أو ليريني نفسه كان يقرب وجهه الى زجاج مقصورة مقابلة لمقصورتي ، وان تلقيت زيارة لاحظت انه متسمر على الباب ، بحيث يمكن ان يلقي علي نظرة عابرة ، وانتهى الى معرفة الاشخاص الذين يعاشرونني ، فكان يتبعهم عندما يتوجهون الى مقصورتي ليحظى بمتعة انفتاح بابي ؛ ولاشك ان الفتى المسكين قد عرف سريعا من أكون ، لانه كان يعرف بالنظر الدوق دي موفرنيوز وحموي ، وسرعان ما وجدت مجهولي الغامض في مسرح الايطاليين في قاعة يتأملني فيها مواجهة باعجاب ، وفي نشوة بريئة : كان ذلك جميلا .

عند الخروج من الاوبرا ، أو من مسرح بوفون ، كنت أراه مسمرا بين الجماهير ، يزحمونه فلا يتحرك ، وكانت عيناه تبدوان أقل بريقا ، عندما يراني استند الى ذراع انسان أثير لدي ، غير أنه لم يوجه لي كلمة ، ولا رسالة ولا تلميحا . ألا تعترفين بحسن ذوقه ؟ ! أحيانا عندما كنت أعود الى قصري مع الفجر ، كنت أجد رجلي جالسا على مدخل مرآب عربتي .

كان لهذا العاشق عينان جميلتان جدا ولحيــة ثخينــة طويلــة كمروحة ، وعنفقة(١) وشارب ، وعارضان ، فلا يرى من وجهه الا وجنتان بيضاوان وجبين وضاء ؛ وأخيرا رأس عتيق بحق .

انت تعلمين أن الامير كان يدافع عن التويلري من ناحية الارصفة في ايام تموز ، وعاد مساء الى سان كلو بعد أن فشلت المحاولة . قال لي « كدت أقتل ، يا عزيزتي ، في حوالي الساعة الرابعة ، عندما وجه الي احد الثوار بندقيته ، لكن رجلا شابا ذا لحية ، يخيّل الي أنني رايته في مسرح الايطاليين ، وكان يقود الهجوم ، ازاح عنــي قصبــة البندقية . أصابت الطلقة رجلا آخر ، أحد رقباء الفرقة ، وكان على بعد خطوتين من زوجي .

هذا الشاب يجب أن يكون إذاً جمهورياً ؛ وفي العام ١٨٣١ عندما عدت للسكن هنا ، صادفته وقد أسند ظهره الى جدار هذا المنزل ، كانت تبدو عليه الغبطة لنكبتي ، إذ ربما بدا له أن هذه المصيبة تقرّب بيننا ، ولكن بعد فتنة سان ــ مري(٢) لم أعد أشاهده مطلقاً : لقد قضى فيها . . عشية مأتم الجنرال لامارك ، خرجت سيراً على الأقدام مع ولدي ، وقد تبعنا فتاي الجمهوري مرة امامنا ، ومرة خلفنا ، من المادلين حتى ممر البانوراما الذي كنت ذاهبة إليه .

ــ أهذا كل شيء ؟ سألت المركيزة .

ــ كلا ياعزيزتي ، هذا الحب كان كثير الكبر ، وقلب هذا الرجــل ودّ أن يتحدث إلي بالذات وسلمني رسالة على ورقة عادية موقعــة باسم المجهول .

ــ ارنيها . طلبت المركيزة .

---

(١) عنفقة Royale : اشعار بين الشفة السفلى والذقن (المترجم) .

(٢) جرت هذه الفتنة عقب الاضطرابات التي حدثت خلال جنازة الجنرال لامارك بتاريخ ٥ و ٦ حزيران وبلغت اشدّها على حاجز دير سان ــ مرى وقد خلدها فيكتور هوغو في رواية البؤساء .

ـ كلا ياعزيزتي ، هذا الحب كان كثير الكبر وقلب هذا الرجل كان كثير القداسة بحيث لا يجوز أن أفشي سره . هذه الرسالة ، على قصرها ، رهيبة بحيث تثير شغاف قلبي عندما أفكر فيها . هذا الرجل الميت سبب لي من الانفعالات أكثر من جميع الأحياء الذين قربتهم ، إنه يعود الى ذاكرتي باستمرار .

ـ اسمه ؛ سألت المركيزة .

ـ اوه ! اسم عادي جداً ، ميشيل كرستبان .

ـ ردت السيدة دي اسبار بحرارة : لقد احسنت بتصريحك لي به ، فقد سمعت غالباً أحاديث عنه . فهذا الميشيل كرستيان كان صديقاً لرجل شهير اردت سابقاً رؤيته ، وهو دانييل دارتز ، الذي يأتي مرة او مرتين كل شتاء لزيارتي .

كرستيان هذا قتل فعلاً في سان مري ، ولم يكن ينقصه الأصدقاء، وقد سمعت انه كان احد هؤلاء السياسيين الكبار الذين لا ينقصهم ، كما الأمر بالنسبة لدي مارسي ، إلا حركة بالون الظروف ليصلوا فجأة إلى ما يطمحون اليه .

ـ « من الاحسن إذا موته » قالت الأميرة وعليها مسحة كآبة غطت على أفكارها .

ـ أتريدين أن تلتقي في أمسية ما مع دارتز لدي ، وتتحدثان عن الشبح الذي غاب .

ـ بكل طيبة خاطر ، يا عزيزتي .

ـ بعد هذه المحادثة بعدة أيام ، وعد بلونده وراستينياك اللذان يعرفان دارتز ، السيدة دي اسبار ، بأن يقنعاه بالمجيء للعشاء عندها ، كان يمكن بكل تأكيد لهذا الموعد أن يكون طائشاً ، لو لم يذكر اسم الأميرة ، فلقاؤها بالنسبة للكاتب الكبير لا يمكن أن يكون بغير اهتمام .

دانييل دارتز أحد الرجال النادرين في عصرنا ممن يجمعون الطبع الجميل الى الموهبة الفذة ، وهو لم يحظ بعد بكل الشعبية التي تستحقها مؤلفاته ، لكن له تقديراً محترماً لا ينقصه شيء لدى النفوس المتميزة . إن شهرته ستكبر ايضاً دون شك ، لكنها وصلت الى مداها في اعين عارفيه : إنه من المؤلفين الذين سيحتلون ، عاجلاً أو آجلاً ، مكانهم الحقيقي ، ولن يتبدلوا به أبداً .

كان نبيلاً فقيراً ، فهم عصره فاعتمد في كل شيء على شهرته الشخصية ، وقد صارع مدة طويلة على الحلبة الباريسية ، دون إرادة عم ثري دفعه الغرور إلى معارضة ابن أخيه وتركه فريسة الشقاء الأكثر قسوة ، ثم أوصى له بعد أن بلغ الشهرة بكل الثروة التي حرمه من بعضها بلاشفقة وهو كاتب مغمور ؛ هذا التغير المفاجىء لم يبدل شيئاً من طبائع دانييل دارتز ، واستمر في عمله ببساطة جديرة بالأزمنة السالفة ، وفرض احترامه مجدداً بحصوله على مقعد في مجلس النواب حيث اتخذ مكاناً من اليمين . فبعد ارتقائه سلم المجد تجول قليلاً في بلدان العالم وعرفه أحد أصدقائه القدامى ، وهو الطبيب الشهير هو رأس بيانشون على البارون دي راستينياك ، احد كبار موظفي إحدى وزارات الدولة وصديق دي مارسي . هذان الرجلان السياسيان استجابا الى طلب دانييل وهوراس وبعض أصدقاء ميشيل كرستيان الحميمين بسحب جثمان هذا الجمهوري ليتمكنوا من دفنه بشكل لائق .

إن الاعتراف بخدمة، تتعارض مع الصرامة الادارية المتقيد بها في تلك الفترة،التي سادت فيها الأهواء السياسية بعنف(١) ، ربط إن صح التعبير بين دارتز وراستنياك ،وكان الموظف الكبير والوزير الشهير من الحنكة بحيث لم يفوتاهذا الظرف ليكسبا خلاله بعض اصدقاء ميشيل كرستيان الذين لم يكونوا مع ذلك يشاطرونه آراءه ، والذين والوا بعدها الحكومة

(١) بعد سحق الفتنة اعلنت بتاريخ ٧ حزيران ١٨٣٢ حالة الطوارىء في باريس ، وحول الموقوفون إلى مجلس عسكري لكن صحف اليسار هاجمت هذا الإجراء ، وجرت المحاكمة امام محكمة مدنية أصدرت احكاما مختلفة على /٨٢/ موقوفا منها ٧ احكام بالإعدام ابدلت فيما بعد إلى النفي .

الجديدة ، واحدهم وهوليون جيرو ، سمي أولا مقدم عرائض ثم أصبح مستشارا للدولة .

كانت حياة دانيل دارتز مخصصة كلها للعمل ، لا يخالط المجتمع إلا لماما وهو بالنسبة إليه كحلم ، وبيته دير هو فيه راهب حبيس : الزهد نفسه في المطالب والانتظام نفسه في المشاغل . وأصدقاؤه يعرفون أن المرأة بالنسبة إليه ، حتى الوقت الحاضر ، ليست إلا خطراً يخشى منه دائماً ، لقد لاحظها طويلا كي يتقي شرها ، ولكن لشدة دراسته لها انتهى الى جهلها كلياً ، مماثلا في ذلك أولئك التكتيكيين المتعمقين الذين يهزمون دائماً في ميادين غير متوقعة عدلت فيها او عورضت بديهياتهم العلمية ؛ وقد بقي الولد الأكثر سذاجة بمظهر الملاحظ الأكثر علماً . هذا التناقض ، الذين يبدو مستحيلا في الظاهر ، يمكن تفسيره جيداً من قبل أولئك الذين يدركون الهوة الفاصلة بين القدرات والعواطف : فبعضهم يشغل رأسه ، وبعض آخر يشغل قلبه ، ويمكن أن يكون انسان رجلا عظيماً ونذلا ، كما يمكن أن يكون أحمق وعاشقا متيما . أما دارتز فهو احد هذه الكائنات المحظوظة ممن جمعوا حدة الذكاء ورفعة المزايا العقلية الى قوة وكبر العواطف وهو بمزية نادرة، رجل عمل ورجل فكر في آن واحد ؛ وحياته الخاصة نبيلة وصافية ؛ وإن كان قد هرب من الحب بعناية حتى حينه ، فلأنه يعرف نفسه جيداً ، فهو يعرف مسبقا مدى سلطة الهوى عليه ؛ وخلال مدة طويلة كانت المشاغل المجهدة التي يحفر بها الأرض الصلبة لمؤلفاته المجيدة وبرودة الشقاء درعاً واقياً له ؛ وعندما حل اليسر بعد العسر كان على علاقة عادية جداً وشديدة الابهام مع امرأة متوسطة الجمال ، لكنها تنتمي الى الطبقة الدنيا ، دون اية ثقافة ، أو حسن تصرف ، وهي محتجبة بعناية عن جميع الأنظار .

نسب ميشيل كرستيان الى الرجال العباقرة القدرة على تحويل المخلوقات الأكثر غلاظة الى كائنات خرافية رشيقة، والحمقاوات الى نساء ذكيات ، والفلاحات إلى مركيزات : وكلما كانت المرأة كاملة صفرت في عيونهم ، لأن مخيلتهم كما يتوقع عندئذ لايمكنها أن تفعل شيئاً؛والحب

بالنسبة اليه حاجة بسيطة من حاجات الحواس لدى الكائنات الدنيا ، بينما هو بالنسبة للكائنات العليات الخلق المعنوي الأكثر سعة والأكثر جاذبية ؛ وقد اعتمد من أجل تأييد دارتز على مثال رافاييل وفورنارينا(١) وكان يمكنه ان يقدم نفسه كنموذج لهذا النوع ، هو الذي كان يرى ملاكا في الدوقة دي موفرينيوز ، اما نزوة دارتز الغريبة فيمكن تبريرها بطرق متعددة : ربما فقد الأمل على ان يلقى في هذه الدنيا امراة تحقق الوهم العذب الذي يحلم به كل رجل فكر ويداعبه ؟ او ربما كان له قلب كثير الحساسية والرقة يصعبعليه أن يسلمه لامرأة مجتمع ؟ أو ربما فضل ان يحسب حساب الطبيعة ويحتفظ بأوهامه مراعيا مثله الأعلى ؟ او ربما ازاح الحب معتبرا إياه غير متناسب مع أعماله ومع انتظام الحياة الرهبانية حيث يمكن للهوى أن يفسد كل شيء . منذ عدة اشهر ودارتز هدف لسخريات بلونده وراستنياك اللذين يأخذان عليه عدم معرفته بالمجتمع وبالنساء ؛ وبتصديقهما ندرك أن اعماله العديدة والمتقدمة لم تسمح له بالانصراف الى اللهو : كان يملك ثروة معتبرة ، ويعيش عيشة طالب ، ولا يتمتع بشيء ، لا بذهبه ولا بمجده ؛ فهو يجهل المباهج الحلوة للهوى النبيل والرقيق الذي توحي به بعض النساء الطيبات المحتد والجيدات التربية أو تتأثر به . أليس معيبا بالنسبة إليه ألا يعرف إلا فظاظات الحب !

إن الحب المقتصر على ماتفرضه الطبيعة هو في نظرهما اكثر الاشياء حمقاً في العالم . واحد أمجاد المجتمع هو انه خلق المراة هناك حيث الطبيعة اوجدت الأنثى ؛ وخلق استمرارية الرغبة حيث الطبيعة لم تسع إلا لاستمرارية النوع ؛ وابتكر اخيرا الحب أجمل العبادات البشرية .

لم تكن دارتز يعرف شيئا من أناقة التعبير الجذابة ، ولا من براهين الود التي يسكبها الفكر والروح دون انقطاع ، ولا من هذه الرغبات المتسامية بطرائقها ، كان قد عرف المراة لكنه جهل الالوهية .

---

(١) فورنارينا : فتاة ايطالية جميلة ، ابنة خباز من روما ، عملت موديلا لرفاييل ثم اصبحت خليلته .

ـ يجب ان تتوفر في المراة لتحب فعلا كثير من زينة الروح والجسد وروعة الفن المدهش . اخيراً بتمجيد الانحرافات المعذبة في الفكر المشكلة للفنج الباريسي ، رثا هذان المفسدان لدارتز الذي يحيا على غذاء صحي دون أي أفاويه ، ودون أن يذوق اطايب المطبخ الباريسي الراقي ، واثارا بحماس فضوله . اما الدكتور بيانشون الذي كان دارتز يبوح له بأسراره، فقد عرف ان هذا الفضول قد استيقظ اخيرا ؛ فعلاقة هذا الكاتب الكبير مع امراة مبتذلة ، وهي أبعد ما ترضيه عادة ، قد أصبحت غير محتملة، لكنه احتفظ بها نتيجة الخجل الشديد الذي يستحوذ على جميع الرجال المنعزلين .

قال راستينياك : عند امتلاك مجن مقطع بالأشداق والذهب وقرص البيزون والتورتو من جهة واخرى ، كيف لا يلمع هذا المحن البيكاردي ويوضع على عربة ؟ إن لديك دخل ثلاثين الف ليرة ومكاسب قلمك، وقد أثبت مكانةشعارك واسمك يشكل تورية طالما تحراها قدماؤنا: دارتز تعني « الفن كالكنز في قدره » فكيف لاتزهو بذلك وتتنزه رافعاً هذا الشعار في غابة بولونيا ! إننا في عصر يجب فيه على الفضيلة ان تظهر نفسها .

وقال بلونده : إذا كنت تقرأ مؤلفاتك على تلك البدنية المماثلة للافوره(١) التي تشكل كل متعك فإنني أغفر لك الاحتفاظ بها ، اكن يا عزيزي إذا كنت تحيا على الخبز الجاف مادياً ، فإنك على النطاق الفكري ليس لديك حتى هذا الخبز .

استمرت هذه المناوشات الودية عدة أشهر بين دانييل دارتز وأصدقائه، وكانت قائمة عندما رجت السيدة دي إسبار راستينياك وبلونده باقناع دارتز للمجيء للعشاء لديها ذاكرين له ان الأميرة دي كادينييان تحدوها رغبة عارمة في رؤية هذا الرجل الشهير .

---

(١) لافوره : خادمة موليير الشهيرة .

هذه الأنواع من الفضول هي بالنسبة لبعض النساء كما القنديل السحري بالنسبة للأطفال ، متعة للأعين ، هزيلة نوعاً لكنها مليئة بحل الطلاسم ، وبقدر مايثير رجل الفكر العواطف عن بعد ، بقدر مايخيب الأمل في الاستجابة لها عن قرب ، وبقدر ما يُحلَم به براقاً ، بقدر مايظهر خابياً بعدئذ ، ووفق هذا المنظور فإن الفضول الخائب قد يصل غالبا إلى الإجحاف وبلونده وراستينياك لايريدان خداع دارتز ، لكنهما قالا له وهما يضحكان بأن الفرصة الأكثر إغراء قد جاءته من تلقاء نفسها ليغسل ادران قلبه ويتعرف على المتع السامية التي يمنحها حب سيدة باريسية رفيعة المقام ، والأميرة واقعياً كلفة به ولبس هناك مايخشاه ، بل إن نجاحه مضمون في هذا اللقاء ، بل سيكون من المستحيل عليه أن يهبط من المرقاة التي وضعته الأميرة في قمتها ، ولم يجد بلونده وراستنياك اي حرج في ان ينسبا بادرة الأميرة إلى الحب ، إذ يمكنها ان تتحمل هذه الغربة ، وهي التي يؤهل ماضيها لكثير من هذه الطرف ، واخذ كل منهما يقص على دارتز مغامرات الدوقــة دي موفرينيوز : حوادث طيشها الأولى مع دي مارسي ، ثم تناقضاتها الثانية مع دي آجودا الذي صرفته عن امرأته منتقمة بذلك من السيدة دي بوسيان ، ثم ارتباطها الثالث مــع دسغرينيون الشاب الذي صحبته إلى ايطالية مجازفاً بشكل رهيب من أجلها ، ثم كم كانت تعسة مع سفير مشهور ، وسعيدة مع جنـرال روسي ، وكيف كانت مسموعة الكلمة لدى وزيري خارجية الخ .

أعلمهم دارتز أنه يعرف عنها أكثر مما يمكنهم قوله له وذلك عن طريق صديقه المسكين ميشيل كرستيان الذي عبدها سراً لمدة اربــع سنوات حتى كاد أن يصاب بالجنون .

قال دانييل : كنت ارافق غالباً صديقي الى مسرح الإيطاليين وإلى الأوبرا ، وكان المسكين يجعلني اركض معه في الشوارع بسرعة الخيول لنبقى على موازاة عربة الأميرة نتأملها بإعجاب عبر الزجاج ، وبفضل هذا الحب نجا الأمير دي كادينيان من الموت عندما منع ميشيل احـد فتيان الفتنة من قتله .

قال بلونده مبتسماً : ــ حسن ، إن لديك موضوعاً جاهزاً للحديث ، إنها المرأة التي تلزمك ، لن تكون قاسية إلا برقة ، وستدربك بلطف وتطلعك على خفايا الأناقة ، لكن خذ حذرك ! لقد افترست ثروات عديدة، فديان الفاتنة هي إحدى أولئك المسرفات اللواتي لا يشترين بسنتيم وتنفق من أجلهن الملايين ، انصرف إليها جسداً وروحاً ، لكن كن حريصاً على مالك كذلك العجوز في **طوفان**(١) جيروده .

بعد هذه المحادثة غدت الأميرة بعمق اللجة ، ورقة الملكة ، وفساد الدبلوماسيين وإبهام المسارة ، وخطر جنية البحر ، ولم يعد رجلا المرح هذان قادرين على التنبوء بنهاية دعابتهما ، بعد أن جعلا من ديان دي أوكسل الباريسية الأكثر وحشية ، والمغناج الأكثر مهارة ، بل المومس الأكثر إثارة في العالم ، وبالرغم من أنهما كانا على حق فإن المرأة التي اعتبراها بهذه الخفة كانت في نظر دارتز قديسة ومبجلة بحيث لا يحتاج فضوله للقاء بها إلى استشارة ، وقد وافق على الدعوة مباشرة، ولم يكن الصديقان يريدان غير ذلك منه .

ذهبت السيدة دي اسبار لرؤية الأميرة منذ تلقيها الإجابة وبادرتها: « ياعزيزتي ، عندما تشعرين في احد الأيام القادمة بزهوة الجمال والدلع فتعالي إلى سهرة عشاء لدي ، وسأقدم إليك دارتز ، ان رجلنا العبقري من طبيعة متوحشة ، فهو يخشى النساء ، ولم يحبب أبداً من قبل ، فركزي انتباهك على ذلك ، انه مفرط في روحانيته ، وبساطته تبعد عنك كل احتراس فتفويك فطنته ، وكلها استذكار ، تؤثر بعد حين وتفسد كل المخططات ، قد تفاجئينه اليوم ، ولكنه في الغد لن يكون ذلك الغر .

ــ قالت الأميرة : آه ! لو انني في الثلاثين للهوت جيداً ، إن ما نقصني حتى الوقت الحاضر هو رجل فكر اتلاعب به ، لم الق قبلا الا موالين ولم أحظ بمجابهين فكان الحب بالنسبة لي لهواً بدلاً من ان يكون معركة .

---

(١) لوحة لجيروده تحمل هذا الاسم ، عرضت في العام ١٨١٠ .

ـ اعترفي يا أميرتي العزيزة بإنني كريمة جداً بالرغم من المثل القائل « قبل أن تفكر بالآخرين فكر بنفسك » .

تبادلت المراتان النظر وهما تبتسمان وشدتا على الأيدي بود ، فمن المؤكد ان ما بين الواحدة والأخرى أسراراً أكثر اهمية لن تتوقف دون شك على نيل حظوة رجل او تأدية خدمة ما ، إذ أن الصداقات الحميمة القابلة للاستمرار بين النساء لا تتوطد إلا ببعض هفوات مشتركة،وعندما يمكن لصديقتين ان تقتل كل منهما الأخرى وترى كل منهما في يدها خنجراً مسموماً ، فانهما تعرضان عند ذلك مشهداً لانسجام لا تعكره إلا للحظة التي تتخلى فيها احداهن عن سلاحها دون انتباه .

إذا بعد ثمانية ايام من هذه المقابلة تمت لدى المركيزة احدى هذه السهرات التي تستمر حتى الفجر والمخصصة للأصدقاء الخلص حيث لا يحضر شخص دون دعوة فعلية ، وحيث تقفل الأبواب . هذه السهرة خصصت لخمسة اشخاص هم إميل بلونده والسيدة دي مونكورنه ؛ ودانييل دارتز وراستنياك والأميرة دي كادينيان ، وبأخذ وجود ربة البيت بالحسبان فعدد الرجال مساو لعدد النساء .

لم تهيء الصدفةأبداً تحضيرات اكثر براعة مثلهذه المعدةللقاءدارتز والسيدة دي كادينيان ، فالأميرة ما تزال تعتبر حتى الآن إحدى النساء الأكثر براعة في تبرجها الذي يعتبر أول الفنون لدى المرأة ، وقد ارتدت ثوبا من المخمل الأزرق ذا كمين عريضين ابيضين بتدليان ، وصداراً ظاهراً ، واحد هذه الأوشحة من التول المكرنش برقة والمطرز بالأزرق الذي يرتفع بمقدار اربعة أصابع حول عنقها ويغطي كتفيها كما يشاهد في بعض لوحات رفاييل ، وقد زينت لها وصيفتها شعرها ببعض ازهار الخلنج البيضاء المصفوفة بمهارة حول شلالات شعرها الاشقر وهو احد مظاهر فتنتها اكسبتها الشهرة . من المؤكد أن ديان كانت تبدو وكأنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، فسنوات الراحة والعزلة الاربع

قد ردت الى اونها نصارته . الا توجد ايضاً لحظات تعطي فيها الرغبة بنيل الاعجاب مزيدا من الجمال للنساء ؟ إن الارادة ليست بدون تأثير على تغيرات الوجه ، فإذا كانت الانفعالات العنيفة لها القدرة على جعل البشرة البيضاء مصفرة لدى الاشخاص ذوي المزاج الدموي الكئيب ، وجعل الوجوه اللمفاوية مخضرة ، الا يجب ان نوافق على أن للرغبة والفرح والأمل القدرة على إضاءة اللون وتذهيب النظر ببريق حي وإحياء الجمال بشعاع وهاج كصبح يوم رائق .

كان بياض الأميرة الشهير قد اكتسب مسحة ناضجة منحتها هيئة موقرة ؛ ففي تلك الفترة من حياتها التي جعلتها تراجع نفسها اكثر من مرة وتراودها أفكار متعقلة ، بدا جبينها الحالم السامي متوافقا بشكل مدهش مع نظرتها الزرقاء ، الهادئة ، الجليلة ، فكان من المستحيل على المتفرس الأكثر مهارة أن يلحظ مخططات أو نية مبيتة تحت هذه الرقة الخارقة من القسمات إن بين وجوه النساء مايخدع العلم ويحرف الملاحظة بهدوئه ونعومته ، ويجب أن تتهيأ فرصة فحصها عندما تنطق الأهواء ، وهذا امر صعب ، أو عند الكلام وهذا لن يفيد عندئذ في شيء : إذ أن المرأة تبدو في تلك الأثناء عجوزا ولا تخفي شيئا .

كانت الأميرة إحدى هؤلاء النسوة اللواتي لا يخترق لهن حجاب ، فهي تبدو كما تريد أن تكون : لعوباً ، طفلة تَقنِطُ ببراءتها ؛ او زكية جدية وعميقة تثير القلق ؛ وقد اتت الى سهرة المركيزة بنية ان تكون امرأة ناعمة بسيطة عرفت من حياتها خيبات الأمل فقط ؛ امرأة تغمرها مسحة روحية ، مفترى عليها إنما مستسلمة ، أخيراً ملاكاً مقهوراً .

وصلت في ساعة مبكرة لتحتل الى جانب السيدة دي اسبار ركناً قريباً من المدفأة وتشاهد في الوضع الذي تحبه ، احد هذه الأوضاع التي تحتجب فيها المعرفة تحت طبيعة ساحرة ، احد هذه الأوضاع المدروسة المتعمدة التي تبرز القوام الجميل المنساب من القدم والصاعد

بلطف حتى الردف ليستمر باستدارات مدهشة حتى الكتفين مهيئاً للأنظار كل المظهر الجانبي للجسم . إن امرأة عارية أقل استثارة من امرأة في ثوب فصل بمهارة ليغطي كل شيء وليظهر شكل كل شيء في آن معاً .

في لباقة لا تبتكرها كثير من السيدات ، وأمام دهشة المركيزة البالغة ، اصطحبت ديان معها ولدها الدوق دي موفرنييوز ، وبعد لحظة تفكير شدت السيدة دي أسبار على يد الأميرة اشارة الى إعجابها بذكائها قائلة :

« إنني أفهمك ! بإظهارك لدارتز جميع الصعوبات دفعة واحدة ، فلن تجدي ما ستتغلبين عليه » .

حضرت الكونته دي مونكورنه مع بلونده ، وجاء دارتز مع راستينياك لم تقابل الأميرة الرجل الشهير باي من عبارات المديح التي يفرقه فيها الأشخاص العاديون لكنها ابدت له مظاهر المودة المقترنة باللطف والاحترام التي يمكن أن تكون خير تعبير عن تسامحها، ولا شك أن تصرفها سيكون هكذا حتى مع ملك فرنسة ، أو مع الأمراء ، بدت سعيدة لؤية هذا الرجل الكبير ومسرورة لأنها سعب الى ذلك .

إن الأشخاص أصحاب الذوق الرفيع ، كالأميرة ، يتميزون خاصة بطريقة إصغائهم : بشاشة بعيدة عن السخرية هي من التهذيب بمنزلة الممارسة من الفضيلة ، فعندما كان الرجل الشهير يتكلم ، كانت تتخذ وضعاً منتبهاً هو أكثر اطراء الف مرة من المدائح المنمقة .

تم هذا العرض المتبادل دون مغالاة وبلباقة من قبل المركيزة ؛ وعلى العشاء أجلس دارتز قرب الأميرة التي كانت بعيدة عن مظاهر مغالاة المتدللين في اتباع الحمية فأكلت بشهية طيبة وبدت حريصة على أن تتصرف كإمرأة طبيعية دون أية كلفة أو مسلك غريب ، وكانت تنتهز

الفرصة بين كل طبق وآخر وعندما يدور حديث عـام لتدخل في حديث حاص مع دارتز منفردين . قالت له :

إن سر السعادة التي تغمرني لوجودي بقربك هو الرغبة في الإطلاع على بعض ما يخص صديقاً مسكيناً لك مات من أجل قضية غير قضيتنا، إنما ترتبت له ، يا سيدي ، علي واجبات كبيرة لم اتمكن من معرفتهـا ووفائها في حينها ، مما آسف له ويشاطرني في أسفي الأمير دي كادينيان إنني اعرف انك أحد اعز أصدقاء ذلك الفتى التعس . إن صداقتكمـا المتبادلة النقية وغير المتزعزعة كانت دافعاً موجهاً لي ، فلا تستغرب إذاً رغبتي في معرفة كل ما يمكن ان تقوله لي عن هذا الانسان العزيز عليك ، وإن كنت أنتمي الى عائلة منعية وأدين بآراء ملكية ، فإنني لست في عداد أولئك الذين يعتقدون أن مـن المستحيل الجمع بين الـولاء الجمهوري والقلب النبيل ؛ فالملكية والجمهورية هما الشكلان الوحيدان للحكـم اللذان لا يخنقان العواطف الجميلة .

اجاب دانييل بصوت متأثر : كان ميشيل كرستيان ، يا سيدتي ملاكاً ، وانا لا اعرف بين أبطال العصر القديم رجلا اسمى منه . احترسي أن تعتبريه كواحد من أولئـك الجمهوريين ذوي الأفكار الفتية الذيـن يريدون تجديد أيام الجمعية الوطنية(١) والطاف لجنة الخلاص العام . كلا إن ميشيل كان يحلم باتحاد فدرالي(٢) يشمل كل اوربة شبيه بالاتحاد

(١) هي الجمعية التي حكمت فرنسة من ٢١ أيلول ١٧٩٢ حتى ٢٦ تشرين اول ١٧٩٥ واعلنت الجمهورية وحكمت على لويس السادس عشر بالموت ، وعنها انبثقت لجنـة الخلاص العام .

(٢) فكر جان جاك روسو من قبل بفكرة اتحاد اوروبي ، كما أن هنري الرابع كان قد وضع مشروعا كبيرا لتعديل وضع أوروبة بحيث تغدو « جمهورية مسيحية » يديرها مجلس شيوخ أوروبي كذلك بطرق بلزاك مرة اخرى إلى هذا الموضوع في روايـة المستخدمون على لسـان ديروا الـذي يعتبره صـديقا لميشيل كريستيان ولـه أفكاره نفسها .

السويسري . فلنعترف فيما بيننا ! بعد حكومة الفرد الواحد الرائعة ، التي تلائم على ما أعتقد بصورة خاصة بلادنا ، كان نظام ميشيل هو تجنب الحروب في العالم القديم واشاداته على قواعد غير الغزو الذي حوله الى اقطاعات ، والجمهوريون على هذا الأساس هم الناس الأكثر قرباً الى فكرته لذلك تعاون معهم في تموز ١٨٣٠ وفي سان مري ؛ وبالرغم من أننا كنا مختلفين في الراي فان رابطة الود بقيت متينة بيننا .

ــ « إن هذا أجمل مديح لطبع كل منكما » علقت بخجل السيدة دي كادينيان . تابع دانييل : « في السنوات الأربع الأخيرة من حياته ، لم يعترف إلا لي بحبه لك وقد متن هذا الاعتراف عرى الصداقة الأخوية على شدتها . انه وحده من أحبك كما يجب أن تُحبّي . كم من مرة تلقيت زخات المطر معه ونحن نرافق عربتك حتى منزلك ، ننافس خيولك في السرعة لنبقى على المنطفة ذاتها من التوازي لنراك .. ونعجب بك ! » .

ــ « يترتب علي إذاً دفع تعويض لكما يا سيدي » علقت الأميرة .

ــ « اجاب دانييل بلهجة ملؤها الاسى » : لماذا فقدنا ميشيل وليس هو الآن هنا ؟

ــ «لو بقي لما استمر طويلا في حبه لي على الأرجح» قالت الأميرة وهي تهز راسها بحركة تعبر عن اللوعة . ثم تابعت . « إن الجمهوريين هم أكثر تزمتاً في افكارهم منا نحن أنصار الحكم المطلق الذين نغرق في اخطاء التسامح . لا شك أنه كان يحلم بكمالي والحقيقة القاسية ستخيب حلمه ، فنحن ــ معشر النساء ــ ملاحقات بالافتراء والنميمة بقدر ما تعانون منهما في الحياة الأدبية دون أن نتمكن من الدفاع عن انفسنا لا بالمجد ولا بالمؤلفات . إنهم لا يصدقون ما نحن عليه وإنما ما يحوكونه حولنا ، لقد حجبوا سريعاً المراة المجهولة في شخصي تحت الصورة الكاذبة للمراة المتخيلة والمعتبرة حقيقية في نظر المجتمع . كان يمكن لميشيل أن يعتقد انني غير جديرة بالعواطف النبيلة التي اكنتها لي ، وانني سأكون عاجزة عن فهمه .

وهنا هزت الأميرة راسها وهي تموّج خصلات شعرها الشقراء المليئة بأزهار الخلنج بحركة سامية .

فهم دانييل كلّ ما عبرت عنه من شكوك مكدّرة ومن تعاسات مخبوءة يعجز عنها الوصف :و نظر الى الأميرة التي استأنفت بتأثر شديد : مع أنني في اليوم ا لذي رأيته فيه مجدّداً ، بعد مدة طويلة من ثورة تموز كانت تتملكني الرغبة في أن أمسك بيده واشد عليها أمام الجميع تحت أعمدة واجهة المسرح الايطالي مقدمة له باقة الأزهار التي احملها ؛ لكنني فكرت أن هذا التعبير عن شكري سيساء فهمه ، فأشياء نبيلة كثيرة تمر حاليا وتعتبر حماقات من السيدة دي موفرينيوز ولا يمكنني ابداً تفسيرها إذ لا يوجد من يعرف بحقيقة أمري إلا الله وولدي .

هذه الكلمات التي همست في اذن المستمع بطريقة لا تلفت انتباه المدعوين وبلهجة جديرة بأمهر الممثلات ، من شأنها ان تتوجه الى القلب وهذا ما فعلته في نفس دارتز .

لم يكن الأمر يتعلق ابداً بالكاتب الشهير ، فهذه المراة تريد تبرئة نفسها لصالح رجل ميت ؛ إنها رضيت بالافتراء لكنها تريد أن تطمئن على بقاء صورتها نقية في عيني من احبها ، وانه مات دون أن تتبدل أفكاره عنها .

– أجاب دارتز : إن ميشيل هو ممن يحبون بطريقة مطلقة ، وإن أساؤوا الاختيار يمكنهم أن يتألموا دون أن يكشفوا سر من وقع عليها اختيارهم .

– « أأكون قد أحببت هكذا ؟ » هتفت الأميرة بسعادة بالغة .

– نعم يا سيدتي .

ـ خلال اربع سنوات .

ـ « إن المرأة لا تتبلّغ مثل هذا الأمر إلا وتشعر بالرضى والاعتزاز » قالت وهي تلتفت بوجهها الناعم النبيل نحو دارتز بحركة مليئة بغموض محتشم ، فإحدى أمهر مناورات هؤلاء الممثلات تتجلى في تغيير طرائقهن عندما تحتاج الكلمات الى شدة البلاغة ، والتعبير بالأعين عندما يعجزهن البيان وهذه التفاوتات الماهرة المنزلقة ، في موسيقى حبهن الكاذب او الحقيقي تثير إغراءات لا تقهر .

استأنفت وهي تزيد من خفض صوتها ، وبعد أن تأكدت من إحداث ما رغبت به من تأثير : « أليس في إسعاد رجل كبير ، وإبعاده عن مواقع الجريمة تحقيق لغايته ؟

ـ الم يكتب إليك ؟..

ـ نعم ، لكنني اريد أن أتأكد ، وثق ، يا سيدي ، انه لم يكن مخطئاً عندما احلّني في هذا المكان السامي .

إن النساء تعرف كيف يوشّحن كلامهن بقداسة خاصة ، فهن يشعن فيه تأثيراً يبسّط معنى الأفكار ويمنحها عمقاً كبيراً وإذا لم ينتبه مستمعهن المنجذب بأقوالهن الى مضامينها ، فقد بلغن غايتهن تماما ، وهذه هي غاية الفصاحة .

لو أن الأميرة لبست في تلك اللحظة تاج فرنسة ، لم يكن جبينها اكثر بهاء منه تحت تاج شعرها الجميل المرفوع بضفيرة كأنه برج والمزيّن بزهراتها الخلنجية الجميلة ؛ وبدت هذه المرأة تسير فوق امواج النميمة كما مشى المخلص فوق امواج بحيرة طبريا ، متسربلة بكفن هذا الحب كملاك في هالة إشعاعه ، وما من شيء يشعر بضرورة التصنع ، ولا بالرغبة بالظهور كبيرة او محبة . إنما هي البساطة والطمأنينة .

ما من رجل حي كان يمكنه ان يقدّم للأميرة هذه الخدمات التي حصلت عليها من هذا الميت .

آما دارتز، المنصرف الى عمله المنعزل، الفريب عن تصرفات المجتمع، المغلف بأقنعة دراساته الواقعيـة ، فقد خدعته هذه اللهجة ، وهذه الكلمات ؛ وسحرته جاذبيبة هذه الأساليب الشهية ، واعجبه هذا الجمال التام المتخمر بالشقاء المستكين الى العزلة ، وافتتن بالاقتران النادر بين الذكاء الحاد والروح الجميلة ، اخيرا رغب أن يجني تركـة ميشيل كرستيان ؛ وكان بدء هذا الهوى كما لدى معظم كبار المفكرين بارقة ذهنية فبرؤيته للأميرة ، وتأمله شكل راسها ، وحلاوة تقاسيمها ، وقامتها ، وقدمها ، ويديها بتكوينهما الناعم وعن قرب مما لم يتيسر له وهو يرافق صديقه في عدوهما المجنون ، التمعت الظاهرة المدهشـة لحاسة النظـر الثانية المعنوية الخفيّة التي يجدها الرجل المفعم بالحب في نفسه .

بأي وضوح اناره الحب ، قرأ ميشيل كرستيان مكنون ذلك القلب وتلك الروح ؟ لقد كان داعية الاتحاد متنبئاً ايضا ، ولا شك أنه كان سعيداً . وهكذا بدت الأميرة فيعيني دارتز ذات جادبية كبرى،وقد احاطت بها هالة من الشعر ؛ وتذكر الكاتب خلال العشاء اعترافات الجمهوري اليائسة ، وآماله عندما خال نفسه محبوباً ؛ أما قصائد الحب الجميلة التي تمليها عاطفة حقيقية فقد أنشدت إليه وحده بالنسبة لتلك المراة ؛ ودون أن يشعر ، استغلت ديان هذه التحضيرات الناتجة عن الصدفة .

إن من النادر ان ينتقل رجل ، دون تأنيب ضمير من وضع المؤتمن على الأسرار الى وضع المنافس ، ودارتز يمكنه ذلك دون لوم ؛ وفي لحظة ادرك الفوارق الكبيرة بين نساء النخبة ، هذه الزهرات في المجتمع المترف والنساء العاديات اللواتي مع ذلك لا يعرف منهن إلا عينة واحدة ؛ إذا فقد اخذ من الزوايا السهلة المنال ، الاكثر ليونة في روحه وعبقريته .

دفعته سذاجته وعنف افكاره للاستحواذ على تلك المرأة ، فوجد نفسه مكبوتاً بهذا المجتمع ، وبحاجز الطرائق التي وضعتها مهابة الأميرة ـ ولنقلها صراحة ـ بينها وبينه . وهكذا بالنسبة لهذا الرجل غير المتعود على احترام من يحبها ، وجد في هذه الطرائق شيئاً مسخطاً ، وطعماً اكثر قوة بقدر اضطراره لابتلاعه ، والسكوت عن اضراره دون أن يكشف عن نفسه .

كانت المحادثة عن ميشيل كرستيان ، التي استمرت حتى وقت تناول التحلية ، ذريعة ملائمة لدانييل وللأميرة ليتحدثا بصوت منخفض : عن الحب ، والانسجام ، والتخمين ، ومناسبة لها لتظهر المرأة غير المقدّرة والمفترى عليها ، وله ليضع رجليه في حذاء الجمهوري المتوفي ويحل محله ؛ بل لربما وجد هذا الرجل البريء بطبعه نفسه منقاداً الى ضعف تأسفه على صديقه ؟ .

في اللحظة التي اخذت مدهشات التحليات تلتمع على المائدة تحت وهج الشمعدانات الكبيرة وتحت ظل باقات الأزهار الطبيعية التي تفصل بين المدعوين كسياج براق ملوّن بوفرة بالفواكه والحلويات ، رغبت الأميرة أن تختم تتمة هذه الاعترافات بكلمة عذبة رافقتها إحدى هذه النظرات التي تبدو فيها النساء الشقراوات سمراوات وقد عبّرت فيها برقة عن أن ميشيل ودانييل كانا روحين توأمين . اندفع دارتز بعدها في الحديث العام وقد غمرته غبطة طفولية ومسحة من الزهو جديرة بطالب كلية ؛ وتأبطت الاميرة بالطريقة الاكثر بساطة ذراع دارتز لتعود الى صالون المركيزة الصغير ؛ وعند اجتيازها الصالون الكبير مشت بيبطء ، ولما تجاوزتها المركيزة المستندة الى ذراع بلونده بمسافة معتبرة ، وقفت مع دارتز قائلة : لا اريد أن اكون منيعة على صديق هذا الجمهوري المسكين ، وبالرغم من انني التزمت بعدم استقبال اي انسان ، فأنت وحدك في هذه الدنيا تستطيع أن تدخل منزلي ، ولا تعتقد ان في ذلك محاباة ، فالمحاباة لا توجد أبداً إلا بالنسبة للغرباء ، أما انت فيبدو لي وكأننا صديقان قديمان ، إنني أريد ان أرى فيك اخاً لميشيل .

لم يجد دارتز كلمة يجيب بها واكتفى بأن ضغط على ذراع الأميرة ؛ وبعد أن قدمت القهوة ، التفت ديان دي كادينيان بحركة غنج في شال كبير ونهضت ؛ فلم تبدُ من بلونده وراستينياك وهما من رجال السياسة السامية وممن ألفا عادات المجتمع الراقي أية بادرة دهشة بورجوازية من شأنها ابداء الرغبة ببقاء الأميرة ، لكن السيدة دي اسبار أجلست صديقتها وهي تهمس في أذنها « انتظري الى أن ينتهي الخدم من العشاء فالعربة غير جاهزة » . وأومأت باشارة الى الخادم الذي حمل ثانية صينية القهوة .

ادركت السيدة مونكورنه أن لدى المركيزة والأميرة ما تتساران به فنهضت وسحبت دارتز ، وراستنياك وبلونده بعيدا ؛ مستمتعة بهذه الهجمات الحمقاء المخالفة للمألوف التي تتفاهم فيها الباريسيات بشكل مدهش .

قالت المركيز لديان : حسنٌ ! كيف وجدته .

ـ إنه فتى يُعشَق ؛ لكنه لم يخرج من القماط ، وفي الحقيقة فهذه المرة أيضاً وكما في كل مرة سيكون النصر دون معركة .

ـ إن هذا مخيب للآمال ، ولكن هناك وسيلة : قالت السيدة دي اسبار .

ـ وما هي ؟

ـ دعيني أكون منافسة لك .

ـ كما تريدين لكنني اتخذت قراري ؛ إن العبقرية هي طريقة تشغيل المخ ، ولا اعلم ما يُمتلك به القلب ، ولكن سنتكلم عن ذلك فيمابعد .
بسماع هذه الكلمة الاخيرة التي بدت غامضة عصية على الفهم تحولت السيدة دي اسبار الى المحادثة العامة ، ولم يبد عليها انها قد تأثرت

من عبارة « كما تريدين » ولا متسرعة يدفعها الفضول الى معرفة نتيجة المقابلة . اما الأميرة فقد بقيت نحو ساعة تقريبا وهي تجلس على الأريكة قرب النار في وضع ملؤه اللامبالاة والاسترخاء شبيه بوضع ديدون في لوحة غيرين(١) ؛ كانت تستمع بانتباه شخص مستغرق وتنظر الى دانييل احيانا ، دون أن تخفي إعجابها ؛ إنما ضمن حدود المألوف؛ وعندما قرّبت العربة انسحبت بعد أن صافحت المركيزة واحنت راسها للسيدة دي مونكورنـــه .

انتهت السهرة دون التعرض لذكر الأميرة ، إنمـــا انتهزت فرصة ما يثيره حديث دارتز الذي نَثَر كنوز فكره ؛ ومن المؤكد انه وجـد في راستينياك وبلونده رفيقين من الدرجة اولى في خفة الروح وحدة الذكاء. أما السيدتان فتعدان منذ مدة طويلة من الاكثر رهافة عقل وحباً للمرح في المجتمع الارستقراطي . فكانت تتمـة السـهرة محطـة في واحـة ، وسعادة نـادرة ومقدّرة لهؤلاء الأشخاص وهم عادة فريسة الاستنفار في المجتمـع ، والصالونات ، والسياســة . فبعض الكائنات يتميزون بأنهم بـين الناس كمـا الكواكب الخيّـرة ، يضيئون بنورهم الأفكار ، ويدفئون بأشـعتهم القلـوب . كـان دارتـز أحـد هـذه الارواح الجميلة ؛ هو كاتب ارتفع الى مستوى تعـود فيه على التفكير الشمولي ، ونسي أن مـن الواجب الا يقـال كـل شـيء أحيانـا فـي المجتمـع ومن المستحيل عليه ان يتحفظ تجاه الأشخاص الذين يحيا بينهم باستمرار، ولكن بما ان تفرداته تتسم بشكل شبه دائم بطابع من الابتكار فما مـن أحد يعترض عليها . هذه النكهة النادرة في المواهب ، وهذا الشباب المليء بالبساطة الميزان بحق لدارتز جعلا من تلك السهرة حدثاً ممتعاً .

عندما خرج مع البارون دي راستنياك الذي أوصله إلى منزلـه، تحدثا طبعاً عن الأميرة ، وكيف وجدها دارتز .

---

(١) غيرين (١٧٧٤ ـ ١٨٣٣) عرض لوحة « إينه تقص مغامراتها على ديدون في صـالون ١٨١٧ وقد عرفت نجاحا كبيرا .

ـ إن ميشيل كان على حق في الهيام بها فهي امرأة فذة أجاب دارتز .

ـ « إنها فذة جداً » ، علق راستينياك ساخراً ، من لهجتك أرى أن حبها قد سرى في عروقك ، ولن تمر ثلاثة أيام قبل أن تكون عندها ، ولما كنت أحد عتاق الخبيرين بباريس فسأعرف ماسيحدث بينكما . إيه يا عزيزي دانييل ارجوك ألا تفكر بأي تشابك في المصالح . أحبب الأميرة كما تشاء إذا شعرت أن حبها قد تطرق إلى قلبك ولكن فكر بثروتك . إنها لم تطلب يوماً من أي كان فلسين فهي كثيرة الاعتزاز بأن آل أوكسل أهلها وأهل كادينيان أهل زوجها ، لكنها حسب معرفتي قد سببت تبذير عدة ملايين عدا ثروتها التي كانت معتبرة . كيف ؟ ولماذا ؟ وبأية وسائل ؟ ما من أحد يعرف ، حتى هي بالذات لا تعرف. لقد رايتها منذ ثلاثة عشر عاماً تلتهم ثروة فتى ظريف وثروة كاتب عدل عتيق خلال عشرين شهراً .

ـ منذ ثلاثة عشر عاماً ! لكن ما عمرها إذا ؟

ـ أجاب راستينياك ضاحكاً ألم تلاحظ اذا على المائدة ابنها الدوق دي موفرنييوز ذلك الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عاماً ، والحال تسعة عشر وسبعة عشر تعطي ..

ـ ستة وثلاثين ، لم اعطها الا عشرين ! هتف المؤلف مندهشاً .

ـ ستقبل ذلك منك ، فلا تقلق من هذه الناحية ، وستبقى في العشرين من عمرها من أجلك ، وستدخل في العالم الأكثر سحراً . عمت مساء ، ها أنت أمام بيتك . سنلتقي في الاسبوع القادم لدى الآنسة دي توش .

قال البارون ذلك وهو يرى العربة تدخل شارع بلفون حيث يسكن دارتز في بيت جميل يملكه .

اتاح دارتز للحب ان يتغلغل إلى قلبه على طريقة العم توبي(١) دون ان يبدي أية مقاومة ، وقد تجلى في هيام دون مآخذ وإعجاب مطلق ، وغدت الأميرة تلك المخلوقة الجميلة ، بل إحدى المخلوقات الاكثر تميزاً في باريس ، هذه المدينة المخيفة ، حيث كل شيء ممكن للخير أو للشر ، غدت الملاك المرجو ، أياً كانت صروف الزمان المعاناة .

لنفهم جيداً المتحول المفاجىء لهذا المؤلف الشهير ، يجب معرفة كل ما تركته الوحدة والعمل المستمر من براءة في القلب ، وكل ما تمناه حب اقتصر على الحاجة ، وغدا مملاً قرب امراة وضيعة ، من رغبات ونزوات وما أثاره من اسف ، وما ولده من عواطف إلهية في صميم الروح . كان دارتز فعلاً اليافع ، أو الطالب الذي كشفته فجأة حصافة الأميرة ؛ كما أن إشراقة مماثلة تقريباً تمت لدى ديان الجميلة . لقد التقت اخيراً بهذا الرجل السامي الذي تشتهيه كل النساء ، حتى وإن كان للتلاعب به ، استجابة لتلك القدرة التي ينسقن لإطاعتها ويجدن السرور في كبحها. لقد وجدت اخيراً سعة الذكاء مقترنة ببراءة القلب وجدّة الهوى ، ثم رات بسعادة خارقة كل هذه المواهب مقترنة بشكل أعجبها . بدا لها دارتز جميلاً ، وربما كان كذلك ، بالرغم من انه وصل الى عمر الوقار في الرجل ، فقد احتفظ وهو في الثامنة والثلاثين بزهرة الشباب نتيجة ممارسة حياة قانعة وعنيفة ، واكتسب بدانة معقولة كجميع رجال المكاتب وموظفي الدولة ؛ وقد بدا في مطلع شبابه على بعض شبه ببونابرت ، جنرالاً ، وهذا الشبه ما يزال ظاهراً بقدر ما يمكن لرجل ذي عينين سوداوين وشعر غزير داكن أن يشبه هذا العاهل ذا العينين الزرقاوين والشعر الكستنائي لكن كل ما كان في عيني دارتز من طموح مضطرم شهم بدا وكأنه قد تطرى بالنجاح ؛ فالأفكار التي تغمر جبهته العريضة قد ازهرت ، وأخاديد وجهه قد امتلأت ، والرفاهية نشرت

(١) في رواية تريسترام شندي لسترن .

الواناً ذهبية في الأمكنة التي مزج الشقاء فيها خلال شبابه الواناً صفراء من أمزجة تتوتر قواها لتدعم صراعات ساحقة ومستمرة . ولو تلاحظون بانتباه وجوه الفلاسفة القدامى لوجدتم فيها باستمرار تحولات النموذج الكامل للوجه البشري ، حيث كل سحنة لها تفردها ، وقد تصححت كلها بعادة التأمل والهدوء الثابت الضروري للأعمال الفكرية ؛ والوجوه الأكثر تغضناً كوجه سقراط تصبح مع الزمن في صفاء إلهي . الى جانب هذه البساطة التي تتوج رأسه الامبراطوري ضم دارتز ملامح ساذجة ، وبراءة طفولية ، ورقة مؤثرة ؛ ولم يكن يراعي تلك المجاملة المبطنةدائماً بالنفاق ، التي يعوّضبموجبها الاشخاصالاكثر تهذيباً والأكثر توددا في هذا المجتمع عن المزايا التي تنقصهم ، والتي تجرح أولئك الذين يكتشفون أنهم قد خدعوا . كان يمكن أن تفوته بعض االقوانين الاجتماعية نتيجة عزلته ، لكن بما أنه لا يجرح الإحساس ابداً، فإن هذه النفحة من التوحش **تجعل أكثر لطفاً** البشاشة الخاصة بالرجال ذوي الموهبة الكبرى الذين يعرفون كيف يتخلون عن شموخهم في منازلهم ليسايروا المستوى الاجتماعي فيتدنوا بفكرهم بحيث يفهمهم البلهاء ، ويقدموا ظهورهم ليركب عليها الأطفال كما فعل هنري الرابع(١) .

لم تفكر الأميرة عند عودتها الى بيتها بأن دارتز سيقاوم ما رمته به من إغراء ، فكل شيء قد تم بالنسبة لها : فهي تحب بكل ما تملكه من علم ومن جهل ، وإن تساءلت بينها وبين نفسها فلكي تتأكد من انها

---

(١) قصة تاريخية عن هنري الرابع تذكر انه كان يلعب مع أطفاله وكان احدهم يركب على ظهره والملك يخب كالحصان عندما أدخل عليه سفير اسبانية فدار الحوار التالي :

الملك : هل انت أب يا حضرة السفير .

السفير: إنني أنعم بهذه السعادة يا سيدي

الملك : في هذه الحالة يمكنني ان اتمم دورة الغرفة .

وقد جعل انفرس من هذه الحكاية لوحة بعنوان : هنري الرابع يلاعب ابناءه ويستقبل سفير اسبانية وعرضها في صالون ١٨٢٤ فلاقت شهرة كبيرة .

تستحق مثل هذه السعادة الكبرى مفتشة عن السبب الدافع للسماء لترسل لها مثل هذا الملاك ! لقد ادركت سمو العباقرة ، وخمنت بأنهم لا يخضعون النساء النخبة للقوانين العادية ، وهكذا فبلمحة مختصرة سريعة خاصة بهؤلاء النساء الذكيات ، وعدت النفس بالاستجابة لأول رغبة ، ووفقاً للفكرة التي كوّنتها عن طبع دارتز في اللقاء الأول ، توقعت أنه لن يعبر سريعاً عن هـذه الرغبة بحيث سيمر وقت قبل أن يفعل ما تريد ، وما يجب أن تظهر فيه أمام هذا العاشق السامي .

هنا بدأت إحدى هذه المهازل المجهولة التي تدور في صميم الضمير بين متحاورين أحدهما خادع والآخر مخدوع ، مهزلة تبعد حدود الفسق ؛ إحدى هذه المآسي السوداء الهزلية التي تبدو مأساة طرطوف الى جانبها ترهة من الترهات ، لكنها ليست أبداً من المجال المسرحي ، فهي بالرغم من غرابتها طبيعية . ومعقولة ، ومبررة بالضرورة ؛ مأساة رهيبة يجب أن تسمى الوجه الآخر للرذيلة او مقلوبها .

بدأت الأميرة بإرسال من يأتي لها بمؤلفات دارتز ، ولم تقرأ حتى الكلمة الأولى ، ومع ذلك فقد اقامت مناقشة تقريظية لمدة عشرين دقيقة معه دون لبس ! ثم قرأتها كلها إذ أرادت أن تقارن هذه الكتب مع أحسن ما انتجه الأدب المعاصر ، بحيث أحست بالتخمة الفكرية في يوم مجيء دارتز لزيارتها .

كانت تنتظر هذه الزيارة ، كل يوم ، فتتبرج في أحسن زينة ، تلك الزينة المعبرة عن فكرة تجعلها مقبولة في عينيه ، دون أن يعرف كيف ولماذا ؟

ظهرت امام ناظريه ببزة متناسقة ، بألوان رمادية ، وكأنها في نصف حداد ، فبدت في تظارف مليء بالعفوية ، إنها بزة امرأة لا تتمسك بالحياة إلا ببعض روابط طبيعية وهي تتبرم منها لولا وجود ابنها على الأرجح ؛ انها تظهر سأماً أنيقاً من الحياة لا يصل بها الى حد الانتحار انما

الى إنهاء حياتها في سجن ارضي شاق . استقبلت دارتز كامرأة تنتظره وكانه زارها من قبل مئة مرة ، وانعمت عليــه بمعاملة الصديق القديم ، وشجعته بحركة واحدة أن يستريح كما يحلو له مشيرة الى أريكة عريضة ليجلس ريثما تتم رسالة بدات بكتابتها .

بدات المحادثة بالشكل العادي تماماً ، عن الطقس ، والوزارة ، ومرض دي مارسي ، وآمال الشرعية ، ودارتز من انصار الحكم المطلق ، والأميرة لا يمكن ان تجهل آراء رجل يمثل مع خمسة عشر أو عشرين رجلا حزب الشرعية في المجلس النيابي ، ووجدت وسيلة لتقص عليــه كيف تلاعبت بدي مارسي ، لتنتقل بعدها إلى التحدث عن إخلاص الأمير دي كادينيان للعائلــة المالكة وللسيدة دي بري لتوجــه انتبــاه دارتز الى الأمــير .

« إنه يتميز بمحبته لمعلميه وإخلاصه لهم ، وطبعه العام يعزيني عن طبعه الخاص : ثم تابعت تاركة جانباً الحديث عن الامير » الا تلاحظ وانت العارف بكل شيء أن للرجال طبيعتين ؟ احداهما في بوتهم ، لنسائهم ، وحياتهم السرية ، وهي الحقيقية حيث لا قناع ، ولا تورية اذ لا يكلفون أنفسهم بالتظاهر فيبدون على ما هم عليه ، وهم غالباً رهيبون . ثم طبيعتهم في المجتمع ، مع الآخــرين ، في الصالونات ، والبلاط ، ومع الملك ، والسياسة التي تراهم كباراً ونبلاء ومتسامحين في بزات مطرزة بالفضائل ، مزينين بالكلام المعسول ، ملء اعطافهم المزايا الشهية . يا للسخرية الرهيبة ! ومع ذلك يندهش الناس أحياناً مــن ابتسامة بعض النساء ومظهر استعلائهن على أزواجهن ، ولا مبالاتهن .

تركت يدها تسقط على طول متكأ اريكتها ، دون أن تكمل حديثها لكن هذه الحركة اتمت بشكل مدهش خطابها ، وعندما لاحظت أن دارتز مشغول بالتأمل في قوامها اللدن المتثني على أريكتها الوثيرة وهي تداعب طيات ثوبها وتعبث بزنار عريض يشد خصرها ، وهي جراة في التزين لا تلائم إلا الأجسام الرشيقة فلا يضيع على الناظر شيء من مفاتنها، استطردت وكأنها تتحدث مع نفسها ، لن أستمر فقد انتهيتم أنتم الكتاب

الى اثارة السخرية من النساء اللواتي يدعين تجاهلهن ، المعانيات من زواج فاشل ، اللواتي يخلقن جواً مؤثراً أو ملفتاً للانتباه ، وهذا ما يبدو لي في منتهى السطحية ، فاما ان نرضخ وينتهي الامر . واما ان نقاوم ويسخر بنا ، وفي الحالتين يجب أن نسكت ، والواقع أنني لم اعرف لا أن ارضخ تماماً ، ولا أن اقاوم تماماً ، لكن ربما كان هذا سبباً اكثر وجاهة للالتزام بالصمت ، أية حماقة تدفع النساء للشكوى فاذا لم يكن هن الاكثر قوة ، فقد فاتهن الذكاء ، والحصافة والرقة ، وهن يستحققن نصيبهن ! السن ملكات في فرنسة ؟ انهن يلعبن بكم كما يردن ، ومتى اردن ، وطالما اردن (واخذت ترقص مجمرة عطرها بسفاهة أنثوية وبمرح ساخر) . لقد استمعت غالباً الى بعض فئات بائسات صغيرات يأسفن لكونهن خلقن نساء ، ويردن أن يكن رجالا ، كنت انظر إليهن دائماً بإشفاق . لو ان الأمر يتم اختياراً لفضلت ايضاً ان اكون امرأة ، فاكتمال السرور بامكان الانتصار بالقوة على جميع القدرات التي منحتكم اياها القوانين التي شرعتموها بأنفسكم ! ولكن عندما نراكم عند أقدامنا تقولون وتفعلون الحماقات ، اليس في ذلك سعادة مسكرة افضل من شعور بضعف ينتصر ؟ اذاً عندما ننجح يجب أن نحافظ على الصمت خوفاً من أن نفقد سيادتنا ، وعلى النساء أن يصمتن ايضاً اعتزازاً فصمت العبد يرعب السيد .

هذه الثرثرة همستَ بصوت ساخر بمنتهى الرقة والحلاوة مع حركات رأس مغناج ، بحيث بدا دارتز الذي يجهل كلياً هذا النوع من النساء وكأنه حجل بهره كلب الصيد .

قال اخيراً : ارجوك يا سيدتي اشرحي لي كيف امكن لرجل أن يسبب لك الألم ، وتأكدي انه في الحالة التي تكون فيها جميع النساء تافهات فستكونين انت مميزة حتى ولو لم تنطقي الا بكلمات لا فائدة منها الا في كتاب للطبخ .

« انك تظهر صداقتك بسرعة » قالت بصوت رزين خفف من اندفاع دارتز واكسبه القلق .

تغير موضوع المحادثة ، وطال الوقت ، وخشي رجل العبقرية المسكين ان يندم ان بدا فضولياً ، او ان يجرح هذا القلب ، وخيل اليه أن هذه المراة قد تألمت بشكل كبير .

تألمت ! لقد قضت حياتها تتسلى ، كانت دون جوان انثويا حقيقاً مع فارق انها لا تدعو للعشاء تمثالا من حجر ، بينما من المؤكد انها تتصرف بعقل التمثال .

لا يمكن الاستمرار في هذه القصة دون التطرق بكلمة عن الامير دي كادينيان الذي اشتهر باسم الدوق دي موفرينيوز وإلا فإن ملح الاختلاقات العجيبة الدوقة يختفي ، ولا يفهم البعيدون عن الموضوع شيئاً من التمثيلية الباريسية الرهيبة التي ستلعبها على رجل .

كان الدوق دي موفرينيوز ابن الأمير دي كادينيان رجلاً طويلاً ضامراً ، متقيداً بأدق أصول الأناقة ، متمتعاً بحسن الذوق ، ذا حديث حذاب ، وقد أصبح عميداً في الجيش بمنة من الله ، وغدا عسكريا جيداً بالصدفة ، رغم أنه شجاع كبولوني ، في كل مناسبة ، وبدون رويَّة . وكان يحجب فراغ مخه تحت رطانة الصحبة الكبيرة ، وقد اظهر منذ عمر السادسة والثلاثين لا مبالاة كاملة بالجنس اللطيف نتيجة عجز أصابه معاقباً كمعلمه الملك شارل العاشر على شدة استهتارهما في أيام الشباب ، فقد كان خلال ثمانية عشر عاماً معبود ضاحية سان جرمن ، وامضى كجميع ابناء العائلات حياة طائشة يملؤها البحث عن المسرات فقط .

كان أبوه المدمر بالثورة ، قد استعاد مقامه بعودة آل بوربون ، في حكومة القصر الملكي ، فحصل على معاشه وتقاعده ، لكن الامير الشيخ استهلك هذه الثروة المفتعلة بسرعة ، إذ بقي يتصرف وكأنه ، كما كان قبل الثورة ، ذلك السيد الكبير حتى عندما طبق قانون التعويض بذرّ المبالغ التي تلقاها على مظاهر الترف التي نشرها في أرجاء قصره الواسع،

وهو الملكية الوحيدة التي بقيت له ، والتي شغلت زوجة ابنه القسم الاعظم منه .

توفي الأمير دي كادينيان الأب قبل وقت قصير من ثورة تموز ١٨٣٠ عن عمر ناهز السابعة والثمانين ، بعد أن سبب افلاس امراته ، وبقي مدة طويلة في تنافر مع دوق نفارين ، الذي اتخذ ابنته زوجة اولى له ولم تصف بينهما الأيام . كان للدوق دي موفرينيوز علاقة مع دوقة اوكسل ، وفي العام ١٨١٤ وفي الفترة التي بلغ فيها السيد دي موفرينيوز السادسة والثلاثين ، رات فيه دوقة أوكسل رجلاً فقيراً لكنه نافذ الكلمة في البلاط ، فزوجته ابنتها التي تمتلك دخلا يقدر بخمسين أو ستين الف ليرة سنوياً ، وما سينالها بعدئذ من ميراث أمها وهكذا اصبحت الآنسة اوكسل دوقة ، وكانت أمها على الارجح ، تعرف انها ستلقى اكبر حرية ، وبعد أن حظي بالسعادة غير المؤملة في انجاب وريث ترك لامراته الحرية الكاملة في تصرفاتها وذهب يلهو من معسكر الى آخر يقضي الشتاء في باريس ، ويراكم الديون التي يسددها والده دائماً ، مجاهراً يتسامح زوجي كامل ، منبئاً الدوقة مسبقاً وقبل ثمانية أيام عن موعد عودته الى باريس ؛ كان معبوداً في الفرقة التي يرأسها ومحبوبا من ولي العهد ، فهو ممالق ماهر ، ومقامر بسيط ، دون أي تصنّع : ولم تستطع الدوقة أن تقنعه ان يصاحب يوماً إحدى فتيات الأوبرا ، لياقة ومراعاة لها ، كما كانت تصرح بطرافة .

تولّى الدوق بالوراثة منصب والده ، وعرف كيف يرضي ملكين ، لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، مما يدل على انه يعرف كيف يستفيد من عدم اهليته ، لكن سلوكه وحياته ، وكل شيء لديه محتجب تحت طلاء براق من حسن المنطق ، ونبل الأساليب ، واناقة في غاية الكمال . اخيرا كان الأحرار يحبونه .

بدا من المستحيل على الدوق أن يتابع مسيرة آل كادينيان الذير عرف عنهم ، وفقاً لقول الأمير العجوز ، انهم يبذرون ثروات زوجاتهم ،

وذلك لأن الدوقة هي التي بذرت بنفسها ثروتها ، لكن هذه الخاصية اصبحت شائعة في المجتمع وفي ضاحية سان جرمن بحيث يسخر ممن يتكلم عن ذلك خلال السنوات الخمس الأخيرة من عودة الملكية ، وكأنه يذكر شيئاً مألوفاً كموت تورين أو هنري الرابع .

هكذا ما من امرأة كانت تتكلم عن هذا الدوق الفاتن دون أن تغمره بالمديح ، فهو كامل في معاملته لزوجته ، إذ يصعب أن يظهر رجل مثل طيبة موفرينيوز نحو الدوقة، فقد ترك لها حرية التصرف بثروتها وحماها ودعمها في كل مناسبة ، وقد انقذها ، سواء عن اعتزاز ، أو عن طيبة ، أو عن شهامة من ورطات عديدة كان يمكن لغيرها أن تتلف بها ، رغم حاشيتها ، ورغم اعتمادات دوقة أوكسل العجوز ، ودوق دي نافارين ، وحميّها وعمة لزوجها . إن الأمير دي كادينيان يعتبر حالياً صاحب الطبع الأكثر دماثة في الارستقراطية ، وربما كان الوفاء عند الحاجة احد اجمل الانتصارات التي يمكن أن يحققها المالقون على انفسهم . كانت دوقة أوكسل في الخامسة والأربعين مـن عمرها ، عندما زوجت ابنتها من الدوق دي موفرينيوز ، إذاً فقد شهدت منذ مدة طويلة ، ودون غيرة ، بل وباهتمام نجاح عشيقها القديم ، وفي فترة زواج ابنتها من الدوق التزمت بسلوك نبيل جدا أنقـذ لاخلاقية هذا الاتحاد ؛ غير ان رواد البلاط ، بخبثهم ، وجدوا مادة للسخرية مدّعين أن هذا السلوك الطيب لا يكلف الدوقة شيئا بالرغم من انها انصرفت منذ خمس سنوات الى الورع ولى توبة النساء اللواتي يجب عليهن العمل كثيراً لينلن الغفران .

بدت الأميرة خلال بضعة أيام أكثر فأكثر تميزاً في معارفها الأدبية ، فقد تصدت بشجاعة فائقة الى قضايا عويصة بفضل قراءاتها النهارية والليلية التي تابعتها بجرأة تستحق أكبر الثناء ؛ وقد دهش دارتز ، وكان عاجزا عن أن يكتشف أن ديان أوكسل تردد في المساء ما قراته في الصباح ، وكما يفعل عديد من الكتاب ، اعتبرها امرأة عميقة الثقافة . لكن هذه المحادثات ابعدت ديان عن هدفها ، وجربت أن تعود الى ميدان الاعترافات التي انسحب منها حبيبها بحذر ؛ لكن لم يكن من السهل

عليها أن تعيد رجلاً من هذا المعدن الى وضع جفل منه ؛ غير أن دارتز ، بعد شهر من حملات أدبية وخطابات أفلاطونية جميلة ، تشجع وأصبح يأتي كل يوم في الساعة الثالثة لينسحب في الساعة السادسة ، ثم يظهر من جديد مساء في الساعة التاسعة ليبقى حتى منتصف الليل او الواحدة صباحاً بانتظام عاشق فقد صبره ، وكانت الأميرة في المواعيد التي يحضر بها دارتز دائماً متهيئة في كامل هندامها ، إنما دون تكلف ، هذا الاخلاص المتبادل ، والعناية التي يحيطان نفسيهما بهما ، وكل شيء فيهما يعبر عن عواطف لا يجرؤان على الاعتراف بها ؛ لأن الأميرة خمنت بحق أن هذا الولد الكبير يخشى النقاش بقدر ما في نفسه من رغبة ؛ غير أن دارتز كان يضمن تصريحاته الثابتة الخرساء احتراماً يرضي الأميرة الى ابعد حد ؛ وكان الاثنان يشعران كل يوم بأنهما متحدان حتى ما من أمر مقرر أو حاسم يحول دون مسيرة افكارهما ، فكأنما بين العاشقين من جهة ، مطالب قاطعة ، ومن جهة أخرى مقاومة جدية أو متدللة .

كان دارتز ، ككل الرجال الأكثر شباباً مما تقتضي أعمارهم ، فريسة هذه الترددات المؤثرة الناتجة عن قوة الرغبات والخشية من عدم الإرضاء ، وهو وضع لا تفهمه المرأة عندما لا تشارك به ، لكن الأميرة وقد عملت غالباً على تكوينه أحست بملذاته ؛ وهكذا كانت ديان تنعم بهذه التصرفات الصبيانية العذبة بمزيد من الروعة بقدر ما تعرف كيف يمكن أن توقفها ، فهي تشبه فناناً كبيراً يلذ له رسم بعض خطوط غامضة في مسودة ، وهو واثق من أنه سينهي في ساعة الهام التحفة الفنية التي ما تزال عائمة في غموض الولادة . كم من مرة سرّها ، وهي تشاهد دارتز مستعداً لمزيد من الجرأة ، ان توقفه بملامح رادعة ؟ كانت تطرد العواصف السرية لهذا القلب الفتي ؛ وتثيرها ، وتهدئها بنظرة ، بأن تمد يدها ليقبلها ، أو ببعض الكلمات التافهة المقالة بصوت متأثر ناعم .

. هذا الترويض الموافق عليه ببرود ، إنما المدار باتقان ، كان يزيد باطراد من نقش صورتها في نفس هذا الكاتب الروحاني ، الذي كانت تُسرُّ بإعادته ولداً ساذجاً بسيطاً أشبه بالأبله قربها ، لكن كان لها عودة

ايضا الى ذاتها ، وكان من المستحيل عليها عندئذ الا تعجب من هذا الكبر الممزوج بهذا القدر من البراءة . ولعبة المفناج الكبرى هذه جعلتها هي ايضا تتعلق بعبدها بشكل لا محسوس . أخيرا فقدت ديان صبرها تجاه هذا الابيكتيت(١) العاشق ، وعندما ايقنت انها قد هيأته لسرعة التصديق الكاملة ، رات ان من واجبها ان تطبق على عينيه أكثر العصائب ثخانــة .

في إحدى الأمسيات وجد دانييل الأميرة مفكرة ، وقد أسندت مرفقها الى منضدة صغيرة ، وراسها الأشقر الجميل غارق في ضوء مصباح ، وكانت تعبث برسالة ترقصها على غطاء المنضدة ؛ وعندما راى دارتز جيداً هذه الورقة ، طوتها ووضعتها في حزام ثوبها .

« ما بك ؟ إنك تبدين قلقة » . سألها دارتز .

ــ لقد تلقيت رسالة من السيد دي كادينيان ، وأيا كانت فداحة أخطائه تجاهي ، فانني أفكر ، بعد ان قرأت رسالته ، بوجوده في المنفى ، دون عائلة ، ودون ولده الذي يحبه .

هذه الكلمات المنطوقة بصوت مليء بالروح ، كشفت عن حساسية ملائكية ؛ وقد تأثر دارتز الى ابعد حد ، ففضول العاشق أصبح فضولا نفسيا وادبيا إن صح القول ، اراد ان يعرف الى اي حد يصل كبر هذه المراة ، واي الاهانات يجب أن تغفر لها ، وكيف يمكن لهؤلاء النسوة في المجتمع المتهمات بالطيش ، وقسوة القلب والانانية ان يكنّ ملائكة ؛ وبتذكره أنه قد صُدّ عندما اراد ان يتعرف على هذا القلب السماوي ، أحس بارتعاش في صوته ، وهو يأخذ يد ديان الجميلة الشفافة الرقيقة ذات الأصابع المغزلية ، وقال لها :

---

(١) إبيكتيت : فيلسوف رواقي من الرن الاول الميلادي كان عبداً لا بيفروديت وحرره نيرون جمعت كلماته من قبل آريين .

« هل نحن الآن أصدقاء بحيث تذكرين لي ما يؤلمك ؟ إن لأحزانك القديمة دخلاً في حلم يقظتك هذا » .

ــ « نعم » قالت وهي تصفر هذه الكلمة كأنها أرق نغم يصدر عن ناي تولو[1] وراحت ثانية في حلم يقظتها واحتجبت عيناها .

بقي دانييل في انتظار مليء بالقلق ، وقد غمره المظهر الجليل لتلك اللحظة ، وجعله خياله كشاعر يرى ما يشبه السحب تنقشع بهدوء كاشفة المعبد الذي سيرى فيه أمام قدمي الله الحمل الجريح .

ــ « وماذا بعد ؟ » قال بصوت عذب هادىء .

نظرت ديان الى ملتمس إفصاحها الحاني ، وخفضت عينيها بهدوء ، وهي تبسط جفنيها بحركة تكشف عن أنبل خفر . الوحش وحده يمكنه أن يتصور شيئا من المكر في التموّج الرقيق الذي رفعت به الأميرة اللعوب رأسها الصغير ، لتغرق من جديد نظرة في عيني هذا الرجل الكبير المتلهفتين .

ــ « هل أتمكن ؟ هل يتوجب عليّ ؟ وبدرت منها حركة تردّد ، وهي تنظر الى دارتز بتعبير سام من حنان حالم . إن الرجال لا يؤمنون كثيراً بمثل هذه الأشياء ، فهم يعتقدون أنهم غير ملزمين على الكتمان .

ــ آه ! إن كنت تحترسين مني فلماذا أنا هنا ؟ هتف دارتز .

ــ أجابت وهي تعطي لتنهدها رقة اعتراف لا إرادي : إيه ! يا صديقي ، هل تحسب المرأة حساباً لشيء عندما تتعلق بالحياة ؟ إن الأمر لا تتعلق برفضي (فماذا يمكن أن أرفض لك ؟) إنما بالفكرة

---

(1) تولو « جان لويس (١٧٨٦ – ١٨٦٥) أشهر عازف ناي في عصره . أول عازف في الاوبرا وأستاذ في الكونسرفاتوار .

التي ستكوّنها عني إن تكلمت ، اأسر لك بالوضع الغريب الذي أنا فيه بهذا العمر ؟ لكن ماذا ستقول عن امرأة تكتشف جراح الزواج السرية ، وتفضح أسرار امرأة اخرى ؟ إن تورين قد صان كلمته عن السارقين ، الا يجب عليّ تجاه جلادي أن أكون باستقامة تورين ؟

ـ هل وعدت أحداً بصيانة السر ؟ .

ـ « إن السيد دي كادينيان لم يعتقد بضرورة طلب ذلك . إنك تريد مني إذاً أكثر من روحي ؟ ايها الظالم ! أتريد إذاً أن ادفن فيك استقامتي ؟ » قالت وهي ترمي دارتز بنظرة أعطت فيها قيمة لاعترافها الكاذب تفوق قيمة كل شخصيتها .

ـ « إنك تجعلين مني رجلاً اقــل من عادي إن كنت تخشين مني المبادرة إلى اي أذى » ردّ بمرارة لم يستطع إخفاءها .

ـ قالت وهي تأخذ يده وتنظر إليها ، وتأخذها بين يديها وتداعبها وهي تشدُّ أصابعها إليها بحركة فائقة العذوبة : «عذراً يا صديقي ، إنني أعرف قيمتك ، لقد حدثتني عن حياتك ، وهي نبيلة ، وجميلة ، وسامية ، وجديرة باسمك ، وبالمقابل يجب أن أحدثك عن حياتي ؟ لكنني أخاف في هذه اللحظة أن اهبط في عينيك إن افشيت لك اسراراً لا تتعلق بي فقط . ثم قد لا تصدق اهوال هذا المجتمع ، وانت رجل العزلة والشعر . آه إنك لا تعلم انك رايت مآسيك ، وانت تتخيلها ، تنوف على تلك التي تجري في العائلات الأكثر وفاقاً ظاهرياً . إنك تجهل مدى بعض النكبات المذهبة .

ـ « إنني اعلم كل شيء » هتف .

ـ كلا ، إنك لا تعلم شيئاً ، هل يمكن لفتاة أن تسلّم امها ؟

بسماع هذه العبارة ، بدا دارتز كرجل تائه في ليل أسود في جبال الألب لاحظ مع خيوط الفجر الأولى انه يقفز فوق هوة لا قرار لها . نظر الى الاميرة بشكل مخبول ، وقد شعر بقشعريرة في ظهره . ظنت ديان أن هذا الرجل العبقري ذو ذكاء ضعيف لكنها رات في عينيه بريقاً طمأنها .

قالت بهيئة قانطة : « اخيرا لقد اصبحت بالنسبة لي وكأنك قاض، فيمكنني أن اتكلم بمقتضى الحق الذي يجيز لكل كائن مفترى عليه أن يظهر براءته ، لقد كنت ، وما أزال (إن كان هناك من يتذكر معتزلة مسكينة اجبرها المجتمع على أن ترفض المجتمع) متهمة بكثير من الطيش ، وبأشياء سيئة عديدة ، فليسمح لي بأن أضع نفسي في القلب الذي وجدت فيه ملجأ بطريقة لا اطرد فيها منه ، لقد رايت دائماً في التبرير طعنة قوية توجه للبراءة ، وهكذا كنت ازدري دائماً الكلام ؛ إذ لمن يمكن ان اوجه كلامي ؟ يجب ألا تسرّ هذه الأشياء القاسية إلا الى الله أو الى من يبدو لنا قريباً منه ، الى كاهن أو انسان كنفسنا . حسن ، إذا كانت أسرارنا ليست هنا ، قالت وهي تضع يدها على قلب دارتز ــ كما هي ايضاً هنا (وثنت تحت اصابعها أعلى زنارها العريض) فإنك لن تكون دارتز الكبير ، وأكون قد خدعت .

تبلّلت عينا دارتز بالدمع ، وافترست ديان هذه الدمعة بنظرة جانبية لم تترجرج فيها لا حدقة عينها ولا جفنها ؛ كانت نظرة رشيقة وواضحة كحركة قطة تطارد فأرة .

لأول مرة تجرا دارتز بعد ستين يوماً مليئة بالبروتوكول ، أن يتناول تلك اليد الدافئة المعطرة ، ورفعها الى شفتيه وطبع عليها قبلة انسحبت من المعصم حتى الأظافر بشهوة حسية ناعمة احنت لها الأميرة راسها وهي تتفاءل بخير عميم من الأدب . لقد فكرت أن العباقرة يحبون بشكل أكثر اتقاناً مما يحب المغرورون ، أو رجال المجتمع ، أو الدبلوماسيون ، أو حتى العسكريون الذين ليس لديهم شيء يفعلونه

إلا هذا . إنها خبيرة ، وتعلم ان الطبع المغرم يضع اشارته حتى على لا شيء ؛ والمراة المثقفة يمكن أن تقرأ مستقبلها بدلالة حركة بسيطة كما تمكن كوفيه أن يستخلص علماً كاملاً برؤية جزء من قائمة كائن ، فذكر انها تعود لحيوان بحجمه كذا ، وهو بقرنين أو دون قرون ، لاحم او عاشب ، برمائي ، الخ .. ، عمره كذا ألف عام .

كانت متأكدة انها ستجد عند دارتز كثيراً من الخيال في الحب بقدر ما يضع في اسلوب كتابته ، وقد رات ان من الضروري ان تجعله يصل الى اقصى درجة من الهوى والإيمان ؛ فسحبت يدها بحركة ساحرة مليئة بالانفعالات ، وكأنها تقول : « ارجو التوقف ، إنك تودي بي الى الموت ! » وخفت حماسة كلامها وبقيت فترة وعيناها في عيني دارتز معبرة في آن واحد عن السعادة ، وعن زيادة الاحتشام ، والجزع ، والثقة ، والدنف ، وشهوة مبهمة ، وحياء عذراء . بدت وكأنها في العشرين من العمر فقط ! لكن لنأخذ الاعتبار انها قد أعدت لهذه الساعة كذبات تثير السخرية ، مع فن خارق في التبرج ، فبدت على أريكتها وكأنها زهرة توشك ان تتفتح مع اول قبلات الشمس ، ماكرة كانت أو صادقة ، فقد اسكرت دانييل . إن كان من المسموح به المجازفة برأي فردي فلنعترف بأن من العذوبة أن يبقى الانسان منخدعاً هكذا لمدة طويلة ، ومن المؤكد ان تالما(١) ، على المسرح ، هو فوق طبيعته قوة . لكن اليست الأميرة دي كادينيان من اكبر ممثلات هذا العصر ؟ ، ولا ينقص هذه المراة الا نظارة منتبهون، من المؤسف أن النساء في الفترات المضطربة بالعواصف السياسية يختفين كما زنابق الماء ، ويحتجن ليزهرن ويتفتحن أمام نظراتنا المفتتنة ، إلى سماء صافية ونسيم عليل دافيء .

---

(١) تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦) ممثل فرنسي ، كان المفضل لدى نابوليون ، ابدع في التمثيليات التاريخية .

ازفت الساعة ، وقد أعدت ديان لأسر هذا الرجل الكبير انشوطة يتعذر تخلصه منها وهي تتجلى في رواية حضرت بمهارة سيستمع إليها كما استمع أنصار الإيمان المسيحي الأوائل لرسالة قديس . قالت :

« لقد زوجتني أمي ، يا صديقي ، وهي ماتزال تعيش في أوكسل، وأنا في السابعة عشر ، أي في العام ١٨١٤ (أترى إنني الآن امرأة هرمة) إلى السيد موفرينيوز ليس حبًّابي ، وإنما حباً به ، بذلك وفت ما عليها تجاه الرجل الوحيد الذي أحبته ، وعن كل السعادة التي منحها لها . اوه ! لاتستغرب مثل هذه التركيبات الرهيبة ، فهي تحدث غالباً ، وكثير من النساء هن عاشقات أكثر منهن أمهات ، كما أن معظمهن أمهات افضل منهن نسوة جيدات . هاتان العاطفتان ، الحب والأمومـــة ، اللتان نمتا وصارتا إلى ما هما عليه بفعل طبائعنا ، تتصارعان غالبـاً في قلب النســاء ، ولا بد من أن تقهر إحداهن عندما لا تكونان متعادلتين في الشدة ، وهذا ما يجعل من بعض النساء الاستثنائيات مفخرة جنسنا . إن رجلا بمثل عبقريتك يجب أن يفهم هذه الأشياء التي لا يدهش لها إلا الحمقى ، لكن هذا لا يجانبها الحقيقة ، بل إن ذهبنا الى ابعد من ذلك ، تعتبر مبررة بفروق الطبائع ، والأمزجة ، والتعلقات ، والمراكز، فأنا مثلا ، في هذه الفترة ، وبعد عشرين سنة من التعاسات وخيبات الأمل ، والافتراءات التي تحملتها ، وايام الملل القاتلة ، والمسرات المجهضة ، الست مستعدة أن اجثو على قدمي رجل يحبني بإخلاص والى الأبد ؟ والحال الا يدينني المجتمع عند ذاك ؟ لكن الا تبرر عشرون سنة من الآلام لعشر سنوات متبقية للعيش لي وانا محافظة على جمالي ، لان انصرف خلالها لحب نقي طاهر ؟

إن هذا لن يحدث ، فانا لست حمقاء إلى الحد الذي انقص فيه جدارتي امام عين الله . إنني احمل وزر النور وثقل الحر حتى نهاية يومي وسأنال مكافاتي ..

« يا لها من ملاك ! » فكر دارتز .

« اخيرا انا لم احقد على دوقة دي أوكسل لأنها أحبت السيد دي موفرينيوز ، اكثر من حبها لديان المسكينة التي امامك ، فأمي لم ترني إلا قليلاً جداً ، حتى انها نسيتني ، لكنها تصرفت بشكل سيّىء نحوي ، كإمراة تجاه امراة ؛ وما هو سيّىء بين امراة واخرى يصبح رهيباً بين أم وابنـــة . إن الأمهات اللواتي يمارسن حيـــاة كحياة الدوقة دي أوكسل يحرصن على أن تكون بناتهن بعيدات عنهن ، وهكذا فأنا لم اخالط المجتمع إلا قبل زواجي بخمسة عشر يوما ، ولك ان تحكم على سذاجتي ؟ لم أكن اعرف شيئا ، وكنت عاجزة عن ان اكتشف سر ذلك الزواج . كانت لي ثروة جميلة : غابات بدخل ستين الف ليرة سنويا ، نسيت الثورة أن تبيعهـــا في نيفرني ، أو لم تتمكن مـــن بيعهـــا ، وهي تتعلق بقصر آنزي الجميل. كان السيد دي موفرينيوز مرهقاً بالديون ؛ وإذا كنت قد علمت فيما بعد ماذا تعني الديون ، فإنني كنت أجهل الحياة تماما لأرتاب به ؛ والادخارات الناتجة عن ثروتي استخدمت لاصلاح أوضاع زوجي . كان السيد دي موفرينيوز في الثامنة والثلاثين عندما تزوجته ، لكن هـــذه السنوات كانت كتلك التي تنقضي في الحملات العسكرية ، لذلك يجب أن تحسب مضاعفة . آه ! لقد كان في أكثر من السادسة والسبعين ؛ وكانت أمي وهي في الأربعين من عمرها ما تزال ذات تطلعات ، وهكذا وجـــدت بين غيرتين .

أية حياة مرت عليّ خلال عشر سنوات ؟... آه لو يدرك ما عانته تلك المرأة الصغيرة المسكينة المشتبه بها ! وهي تحت مراقبة أم تغار من ابنتها ! يا الهي !... انتم يا من تبتكرون المآسي ، لن تبتكروا ابدا مثل هـــذه المأساة بسوادها وقسوتها ؛ فغالباً ، وفق القليـــل من معرفتي بالأدب ما تشكل المأساة تتابعاً من الأحداث ، والخطابات ، والحركات التي تتسارع لتنتهي الى كارثة : أما ما أحدثك به فأشد الكوارث رهبة في حَدَث ! إنها وابل يسقط عليك صباحاً ،ويعـــود للسقوط مساء ، وسيسقط في اليـــوم التـــالي . إنني اشعر بقشعريرة في اللحظـــة التي

اكلمك فيها ، والتي اسلط فيها الضوء على كهف دون منفذ ، بارد وقاتم عشت بــه .

إذا وجب ان اقول لك كل شيء ، فإن ولادة طفلي المسكين كانت كل حياتي ... الم تندهش لشــدة الشبه بينــه وبيني ؟ الشعر ذاتــه ، والعينان ، وتقاطيع الوجه ، والفم ، والابتسامة ، والذقن ، والاسنان... والحال أن ولادته كانت صدفة ، أو نتيجة اتفاق بين امي وزوجي . لقد بقيت مدة طويلة فتاة عذراء بعد زواجي ، شبه مهجورة في اليوم التالي ؛ امــاً دون أن اكون امراة ؛ وكانت الدوقة تســر في إطالة مــدة جهلي ، وللوصول الى هذا الهدف تمتلك الأم مزايا رهيبة تجاه ابنتها ؛ وانا فتــاة مسكينة ربيت في دير كوردة تقية ، لا تعلم شيئا عن الزواج ، لكن بعد وعيي المتأخر ، شعرت بسعادة قصوى ، فقد نعمت بوفاق وانسجام عائلتنا ؛ أخيرا صرفت النظر كليــا عن التفكير بزوجي ، الــذي لم يكن يعجبني أبدا ، والذي لا يفعل شيئا ليبدو محبوبا ، وانشغلت بغبطــة أمومتي الأولى : وكانت مــن الحيوية بحيث لم التفت لشيء غيرهــا ؛ وقد نفخ كثيرا في أذني حول ما يتوجب على الأم من احترام لذاتها ! مع إن الفتاة تحب دائما ان تلعب لعبة الأم ، وفي العمر الذي كنت فيه فقد حل طفل محل اللعبة . كنت معتزة بأن لي هذه الزهرة الجميلة ، لأن جورج كان جميلا ... بل آية في الجمال ! كيف نفكر بالعالم عندما ننعم بتغذية ملاك صغير والعناية به ! إنني أعبد الأطفال عندما يكونون صغارا ، بيضا ووردييين . انا لم أكن ارى إلا ولدي ، وكنت احيا مع ولدي ، فلا اترك مربيته تلبسه، أو تعريه من ثيابه ، أو تغير له ، فقد كانت في هذه الاهتمامات المملة بالنسبة للأمهات المتعددي الأولاد ، كل السعادة لي ؛ ولكن بعد ثلاث أو اربع سنوات وبما أنني لست حمقاء تماما ، رغم كل ما بذل لعصب عيني ، فإن النور قد انتهى إليهما . لو تراني في يقظتي ، بعد اربع سنوات،اي في العام ١٨١٩ ؟ إن مسرحيــة الأخوين الأعداء(١)

(١) الاخوان الاعداء او تبايبد : أول تراجيديا لراسين .

تعتبر تراجيديا بماء الورد الى جانب ما كنا فيه ، الدوقة وانا ، كأم وابنتها ، فقد جابهتهما هي وزوجي بمظاهر دلع عامة أصبحت حديث المجتمع ... والله يعلم كيف ! هل تعلم يا صديقي أن الرجال الذين اشتبه اني على علاقة معهم . كانوا بالنسبة لي بمثابة خنجر استخدمه لطعن العدو ؛ بانشغالي بانتقامي ، لم اشعر بالجراح التي سببتها لنفسي. فاعتبرت ، بعد أن كنت ساذجة كطفلة ، امراة منجرفة ، بل أسوأ امرأة في الدنيا ، دون ان أعلم شيئا عن ذلك . إن العالم احمق ، أعمى ، جاهل؛ إنه لا يكشف إلا عن الأسرار التي تسليه ، والتي يوظفها لخبثه ، اما الأشياء الأكثر كبرا ، والأكثر نبلا ، فإنه يضع يده على عينيه كي لا يراها . لكن بدا لي ، في ذلك الوقت ، أنني اكتسبت نظرات ومواقف براءة متمردة ، وحركات اعتزاز تعتبر ذخرا طيبا لكبار الرسامين . كان حريا أن أسلط الأضواء على حفلات الرقص بعواصف غضبي وسيول ازدرائي . قصيدة خاسرة ! فنحن لا ننظم هذه القصائد المهيبة إلا عندما ينتابنا السخط ونحن في العشرين من العمر ! اما فيما بعد فلا نسخط أبدا ، لأننا نعبنا ، ولا ندهش أبدا للرذيلة لأننا اصبنا بالجبن والخوف ؛ وانا اندفعت ، أوه ! اندفعت كثيراً ، كنت أحمق شخصية في العالم تحملت أثقال الجريمة دون ان يكون لي فوائدها . كنت أجد لذة في تعريض نفسي للشبهة ! مكرت كالأطفال . ذهبت الى ايطالية مع فتى طائش ، تركته هناك عندما حدثني عن الحب ، ولكن عندما علمت انه قد جازف في سبيلي (أجرى عملية تزوير من اجل الحصول على المال) هرعت لانقاذه ، لكن أمي وزوجي اللذين يعرفان سر هذه الأشياء شددا القيد علي كامرأة مبذرة . أوه ! هذه المرة ذهبت الى الملك ؛ وقد تأثر لويس الثامن عشر ، رغم ما عرف عنه انه رجل بدون قلب ، فأعطاني من خزينته مئة ألف فرنك ، وهكذا انقذ المركيز دي اسكرنييون من الهوة التي رمى نفسه بها من أجلي ؛ هذا الشاب الذي قد تكون التقيت به في المجتمع انتهى الى اجراء زواج ثري جدا .

هذه المغامرة الناتجة عن خفتي دفعتني الى التفكير ، وقد لاحظت انني أول ضحية لانتقامي ، فالعالم مع امي وزوجي وحمي وهم يبدون

وكانهم يحمون حماقاتي ، اما امي التي تعرف ما انا فيه من انفة ، وكبر ، وطبع موروث من آل اوكسل فقد ارتعبت من الأذى الذي تسببه إن عاملتني بابتذال ؛ وكانت آنئذ في الثانية والخمسين من عمرها فتركت باريس وذهبت لتعيش في اوكسل ؛ وتابت عن أخطائها وهي تكفر عنها بتفان مبالغ فيه وود لا حدود له تجاهي . لكنها في العام ١٨٢٣ تركتني وحدي وجهاً لوجه، مع السيد دي موفرينيوز ؛ آه يا صديقي، أنتم الرجال الآخرون لا يمكن أن تعرفوا كهولة رجل قضى شبابه في المغامرات ، وأية طوية لذلك الرجل المتعود على أن تعبده نساء المجتمع ، فلا يجد الآن لا بخورا ولا مبخرة حوله ، مات فيه كل شيء ، وهو غيور من ذلك بالذات ! لقد اردت بعد أن غدا السيد دي موفرينيوز كله لي ، اردت أن اكون امراة طيبة ، لكنني اصطدمت بكل خشونة الروح المكتئبة ، وبكل نزوات العجز ، وطيش البلاهة ، وكل ابتذال الادعاء ، برجل هو قصيدة الرثاء الأكثر مللاً في العالم ، فهو يعاملني كطفلة ، ويطيب له توجيه الإهانة الى عزة نفسي في كل مناسبة ، وإذلالي تحت ضربات تجاربه ، مبرهناً لي انني اجهل كل شيء . إنه يحرجني في كل لحظة . اخيراً لقد فعل كل شيء ليجعلني اكرهه وأعطاني الحق في خيانته ؛ لكنني كنت تلك المغفلة المنقادة لقلبي ورغبتي في نتيجة طيبة خلال ثلاث أو أربع سنوات . هل تعلم الكلمة الشائنة التي جعلتني ارتكب حماقات اخرى ؟ هل تبتكر اكبر من هذه الفريات في العالم ؟ قيل :

ـ « لقد عادت الدوقة دي موفرنييوز الى زوجها » .

ـ عجباً ، هذا انحلال ، انه لنصر إحياء الموتى ، لم يكن أمامها أن تفعل غير ذلك » اجابت إحدى افضل صديقاتي ، وقريبة لي ، تلك التي سعدت بلقائك لديها .

ـ السيدة دي اسبار ! هتف دانييل وقد بدت منه إشارة رعب .

ـ اوه ! لقد غفرت لها يا صديقي . فالكلمة روحانية الى حد بعيد ، وربما قلت ازا بالذات سخريات أقسى من ذلك على نسوة بائسات هن بمثل النقاء الذي كنت فيه .

قبّل دارتز مجدداً يد تلك المرأة القديسة ، التي بعد ان قدمت له اماً قطعتها إرباً ، جعلت من الأمير دي كادينيان الذي تعرفونه ، عطيلا متعدد الحماقات ، ثم وضعت نفسها في حالة يرثى لها معددة أخطاءها لكي تظهر امام عيني هذا الكاتب الساذج بهذه العذرية التي تجرب أغبى النساء ان تقدمها بأي ثمن لعشيقها .

« انت تعلم يا صديقي أنني دخلت الى المجتمع بألق ولكي احدث فيه تألقات ؛ وهنا تعرضت الى معارك جديدة ، إذ يجب أن اظفر باستقلاليتي واحيّد السيد دي موفرينيوز ، لذلك مارست حياة طائشة لأسباب اخرى ، لا تناسى همومي وانسى الحياة الحقيقية من خلال حياة خارقة ، وظهرت ببريق ، واقمت الحفلات ، وتصرفت كأميرة ، وغرقت في الديون . كنت في منزلي أنسى نفسي في النوم بعد التعب ، ثم أتجدد جميلة فرحة مندفعة في اليوم التالي بطيش في المجتمع ، لكنني في هذا الصراع الحزين بين النزوة والحقيقة بددت ثروتي . وعندما حصلت ثورة ١٨٣٠ ، وفي الفترة التي صادفت في نهاية هذا الوجود الشبيه **بالف ليلة وليلة** الحب النقي الطاهر الذي كنت أرغب بمعرفته (ولأقل ذلك بصراحة) ؛ ولنعترف ! أليس طبيعياً من امراة ، قهرت الأسباب العديدة والأحداث قلبها ، ان يستيقظ هذا القلب في العمر الذي احست فيه بأنها قد خدعت ، بينما ارى من حولي العديد من النساء اللواتي يسعدهن الحب ؟ آه ! لماذا كان ميشيل كرستيان كثير التوقير ؟ إن في ذلك سخرية مني أيضاً ماذا تريد ؟ بسقوطه فقدت كل شيء ، لم أكوّن اوهاما أبداً ؛ لقد عصرتُ كل شيء عدا ثمرة واحدة لم يكن لي تجاهها شهية او اسنان . أخيراً لقد وجدت نفسي عازفة عن المجتمع عندما وجب أن أترك هذا المجتمع ، إن في ذلك شيئاً سماوياً كما في فقدان الحس الذي يهيئنا للموت (وقامت بحركة ملؤها المسحة الدينية) ؛

تابعت بعدها : كل شيء ساعدني على ذلك ؛ نكبات الملكية وبلاياها هيأت لي أن أتوارى ، وابني الذي يعزيني عن أشياء كثيرة ، فالحب الأمومي يجعل كل العواصف الأخرى خداعاً ! إن المجتمع يستغرب بنعزالي، لكنني اجد في ذلك هنائي . اوه ! لو تعلم كم هي سعيدة هنا المخلوقة التعسة التي تراها امامك ! بتضحيتي بكل شيء من أجل ولدي أنسى المباهج التي اجهلها وسأجلها دائماً . من يمكن أن يصدق أن الحياة تتلخص بالنسبة للأميرة كادينيان ، بليلة زواج سيئة ، وكل ما يلحق بها من مجازفات ، وبتحدي فتاة صغيرة لعاطفتين رهيبتين ؟ لا أحد . إنني أخاف من كل شيء الآن ؛ إنني أرفض دون شك عاطفة حقيقية ، حباً ما حقيقياً وصافياً ، لقاء ذكرى كثير من الرياءات ، والتعاسات ؛ مثلي في ذلك مثل الأغنياء الذين تعرضوا لاحتيالات تتظاهر بالشقاء فرفضوا مد يد العون الى بؤس فاضل متقززين من عمل الخير . إن هذا رهيب ، اليس كذلك ؟ لكن تيقن أن ما أقوله لك هو حكاية كثير من النساء .

قيلت هذه الكلمات الأخيرة بلهجة دعابة وخفة تذكر بالمرأة الأنيقة الساخرة .

بدا دارتز منذهلاً ، ففي نظره أن الأشخاص الذين ترسلهم المحاكم الى الأشغال الشاقة لأنهم قتلوا أو سرقوا ضمن ظروف مشددة أو زوروا التواقيع على سندهم قديسون صغار إذا قورنوا بأشخاص المجتمع ، بعد هذه المرثاة الشرسة التي قدمت في مصنع الكذب وسقيت بمياه الستيكس(1) الباريسي وقيلت بلهجة حقيقية لا تقلد .

تأمل الكاتب للحظة تلك المرأة المعبودة ، وقد غاصت في أريكتها وتدلت يداها الاثنتان من وراء المتكأين كأنهما قطرتا ندى على كم زهرة ، رازحة تحت هذا الكشف ، مرهقة وهي تبدو متحمسة بسرد كل آلام حياتها ؛ اخيراً ملاك كآبة .

---

(1) الستيكس : نهر في جهنم .

ثم تابعت وهي تنتصب بانتفاضة ، وترفع إحدى يديها ، وتلقي ببريق من عينين فيهما عشرون سنة طهر مزعومة : ثم احكم ، احكم اي انطباع وجب ان يخلقه في حب صديقك ، لكن سخرية الحظ القاسية .. او ربما مشيئه الله .. إذ عندئذ ، اعترف ، ان رجلاً ، إنما رجل جدير بي سيجدني ضعيفة ، فلشدما طال ظمئي للسعادة ! والحال أنه مات، مات وهو ينفذ حياة من ؟... حياة السيد دي كادينيان ! ايدهشك ان تراني حالمة ... ؟ » .

كانت هذه هي الضربة الأخيرة ؛ ولم يعد دارتز المسكين يقوى على الصمود ، فجثا على ركبتيه ودس راسه بين راحتي الأميرة واخذ بالبكاء، اخذ يذرف هذه الدموع الرقيقة التي تسفحها الملائكة ، إنبكت الملائكة .

امكن للسيدة دي كادينيان وراس دانييل بين يديها ان ترسم على شفتيها ابتسامة الظفر الماكرة ، الابتسامة التي ترسمها القرود وهم يقومون بدور ذكي إن ابتسمت القرود ! « آه لقد ظفرت به » فكرت ، وفعلاً كانت قد ظفرت به جيداً .

– « لكن انت ... » قال وهو يرفع راسه الجميل وينظر اليها بوله .

« عذراء وشهيدة » تابعت وهي تبتسم من ابتذال هذه الدعابة القديمة ، ولكن باعطائها نكهة فاتنة بهذه الابتسامة المليئة ببهجة قاسية فاذا رايتني ضاحكة فلانني أفكر بهذه الاميرة التي عرفت العالم ، بهذه الدوقة دي موفرينيوز التي منحت دي مارسي ، ودي تراي الكريه قاطع الطرق السياسي ، وهذا الأحمق الصغير دي اسفرنيون ، وراستنياك ، وروبمبره ، وسفراء ووزراء ، وجنرالات روس ، ماذا أعرف ؟ أوروبة كلها ! لقد نَقِدَ هذا الألبوم الذي اعددته بذريعة ان من اعجبوا بي هم اصدقائي . آه . انه شيء رهيب . فانا لا افهم كيف

اترك رجلاً يجثو امام قدمي : بينما كره الجميع وازدرائهم يجب ان يكون مبدئي .

نهضت وذهبت الى النافذة بمشية مليئة ببواعث رائعة .

بقي دارتز على الاريكة التي عاد اليها ، دون ان يجرؤ على اللحاق بالأميرة ، لكنه تابعها بنظره وسمعها تشهق بالنحيب دون أن تنتحب ، من هي الآميرة التي تشرق بالدمع ، كانت ديان تجرب المستحيل لاقناعه بحساسيتها .

ظن دارتز ملاكه تذرف الدموع ، فهرع اليها واحاط خصرها وضمها إلى قلبه ؛ قالت بصوت ضعيف وهي تتمتم : « كلا اتركني ، إنني اشك كثيراً في صلاحي لأي امر ، والتوفيق بيني وبين الحياة مهمة فوق طاقة أي رجل .

ـ ديان ! ساحبك حباً يعوّضك عن كل حياتك الضائعة .

ـ كلا ، لا تكلمني هكذا ، انني خجلة في هذه اللحظة ومرتعشة كأنني ارتكبت أفدح الخطايا .

هكذا رجعت كلياً الى براءة الفتيات غير أنها ظهرت مهيبة ، كبيرة نبيلة ، كانها ملكة .

يستحيل وصف تأثير هذه الحيلة ، وقد بدت من المهارة بحيث انطلقت كحقيقة خالصة على روح بكر صريحة كروح دارتز . بقي الكاتب الكبير صامتاً كالأخرس إعجاباً ، مستسلماً أمام هذه النافذة ، ينتظر كلمة ، بينما كانت الأميرة تنتظر قبلة ، لكنها غدت اشبه بقدبسة بالنسبة اليه .

عادت الاميرة لتتخذ مكانها على الاريكة ، بعد ان همدت ، وقد احست بالبرودة تتسرب الى قدميها وفكرت في نفسها وهي تنظر الم،

دانييل بجبهته العالية وراسه المتسامي وكأنها تقول : « لقد استفرق مدة طويلة » .

اما هذا اللاحظ العميق للقلب البشري فكان يتساءل : « أهي امراة ؟ وكيف يجب التصرف معها ؟ » .

قضيا الوقت حتى الساعة اثانية صباحاً وهما يتحدثان بتفاهات تعرف النساء العبقريات كالاميرة كيف تجعلها محببة ، فقد ادعت ديان انها مهدمة وكهلة وفات زمنها ، وراح دارتز يثبت لها ، ما هي مقتنعة به ، من أن لها ارق بشرة ، وانعمها ملمساً وفي زهوة ربيعها كزهرة ، وكانا يتطرقان الى كل مواطن الجمال ويفصلان فيها والأميرة تعلق : « اتعتقد ذلك ؟ » ـ « انك لمجنون » .

ـ انه دافع الشهوة ! ـ خلال خمسة عشر يوما ستراني على حقيقتي .

ـ اخيراً انني اسير الى الاربعين ـ هل يمكن ان تحب امراة تسير الى الشيخوخة .

كان دارتز مندفعاً كطالب كلية مجد في بلاغته المنمقة بمدائح مبالغ فيها ، وكانت الاميرة تستمع الى هذا الكاتب الروحاني وهو ينطق بحماقات ملازم شاب عاشق وهي تضحك في قرارة نفسها ، وقد بدت في هيئة مستفرقة .

عندما اصبح دارتز في الشارع ، تساءل عما اذا كان قد وجب عليه التصرف بشكل أقل احتشاماً ، واستعاد في ذاكرته هذه الاعترافات الغريبة التي اعطينا بالطبع خلاصة جد مختصرة عنها ، اذ انها تحتاج الى كتاب لتسجيلها في غزارتها المعسولة وما رافقها من طرائق عرض . لكن حدة الذهن الاستعادية لهذا الرجل الطبيعي والعميق قد تعرضت للخذلان دون ان يتمكن من النوم : « هذا صحيح ، توجد مثل هذه المآسي

في العالم ، ان المجتمع يغطي مثل هذه الاحوال بأزهار أناقته وتطريز اغتياباته وبراعة أقاصيصه . اننا لا نختلق أبداً الا الواقعي . يالديان المسكينة ! لقد توقع ميشيل هذا اللغز ، وصرح أن تحت هذه الطبقة من الجليد تكمن براكين ، وقد كان بيانشون وراستينياك على حق «فعندما يتمكن رجل أن يضم كبر المثل الأعلى ومباهج الرغبة بهيامه بامرأة فاتنة التصرف، حادة الذكاء ، مرهفة الذوق فهذه سعادة تجلّ عن الوصف » وسبر في نفسه حبه فوجده لا نهائياً .

في اليوم التالي وحوالي الساعة الثانية ، حضرت السيدة دي أسبار يقودها فضول عارم ، فبعد أن انقضى اكثر من شهر لم تشاهد فيه الأميرة ولم تتلق منها اية كلمة ، ما من حديث أكثر اثارة من حديث هاتين الحيتين الرقطاوين في نصف الساعة الاولى فديان دي أوكسل كانت تحترس من التحدث عن دارتز كاحتراسها من ارتداء ثوب اصفر ، والمركيزة تدور حول هذا الموضوع كبدوي حول قافلة غنية . كانت ديان تلهو والمركيزة تتحرق غيظاً ، وانتظرت ديان فهي تريد استخدام صديقتها لتجعل منها كلب صيد ، وبين هاتين المرأتين الشهيرتين في المجتمع الحالي ، توجد واحدة أقوى من الاخرى ، وكانت الاميرة تهيمن بذكائها على المركيزة ، والمركيزة تعترف لها ضمناً بهذا التفوق ، وربما كان هنا سر صداقتهما ، فالاكثر ضعفاً تبقى متربصة في ودها الكاذب ترقب الفرصة المنتظرة طويلا من قبل الضعفاء ليقفزوا على عنق الاقوياء ويطبعوا عليه أثر عضة فرحة ، كانت الأمور واضحة امام ديان ، والمجتمع بكامله مخدوع بملاطفات هاتين الصديقتين .

في اللحظة التي رات فيها الاميرة تساؤلا على شفتي صديقتها قالت لها :

« في الواقع يا عزيزتي ، انني مدينة لك بسعادة كاملة ، وواسعة ولا نهائية وسماوية ؟ » .

« عمّ تريدين أن تعبري ؟ » .

ـ هل تتذكرين ما كنا نتداول به منذ ثلاثة أشهر ، في هذه الحديقة الصغيرة ، على هذا المقعد ، تحت الشمس ، في ظل ياسمينة . آه ! إن العباقرة وحدهم يعرفون كيف يحبون . إنني اطبّق عن طيبة خاطر على أثيري الكبير دانييل دارتز كلمة دوق إلبا لكاترين دي مديسي : « إن راس سمكة سلمون تعادل جميع الضفادع » .

قالت السيدة دي اسبار ، لايدهشني أبداً عدم رؤيتي لك .

ـ قالت الأميرة وهي تتناول يد المركيزة : عديني ، إن رايته ، الا تحدثيه بكلمة عني ، يا ملاكي ، فأنا سعيدة ، أوه ! سعيدة بما يفوق كل تعبير ، وانت تعلمين كم تذهب كلمة أو دعابة بعيدا في المجتمع . إن كلمة تقتل ، إذ ما اكثر البراعة في وضع السم في الكلمة ! لو تعلمين كم وددت منذ ثمانية أيام أن تحظي بهوى مماثل . اخيرا إنه ناعم ، وإنه لنصر جميل بالنسبة لنا معشر النساء أن ننهي حياتنا النسوية بالرقاد في جو حب ملتهب نقي ، وفيّ ، كامل وتام ، وخاصة إن كنا قد سعينا إليه خلال مدة طويلة .

ـ لماذا تطلبين مني أن أكون وفية مع احسن صديقة لي ؟ اتظنين انني قادرة على أن احتال عليك حيلة خبيثة .

ـ عندما تمتلك امراة مثل هذا الكنز ، فان الخشية من فقده هي شعور طبيعي توحي به خواطر الخوف ، إنني حمقاء ، اعذريني يا عزيزتي .

خرجت المركيزة بعد فترة من الوقت ، وقالت الأميرة في نفسها وهي تشاهدها تذهب : « كم ستنظم أموري ، لأنها قادرة ان تقول كل شيء عني ، ولكن لأوفر عليها تعب انتزاع دانييل من هنا ، فسأعمل على إرساله لها .

بعد برهة من ذلك ، وفي الساعة الثالثة حضر دارتز ، وفي وسط حديث ممتع ، قطعت عليه الاميرة فجأة الكلام ، ووضعت يدها الجميلة على ذراعه وقالت « عفواً يا صديقي ، لكنني نسيت هذا الشيء الذى يبدو لي من الترّهات رغم اهميته الكبرى . إنك لم تزر السيدة دي أسبار منذ اليوم ـ الذي أحمد الله ألف مرة عليه ـ للقائي فاذهب إليها ، ليس من أجلك ، ولا مراعاة للياقة ، وإنما من أجلي ؛ إذ ربما خلقت لي منها عدوة ، اذا عرفت مصادفة أنك ، منذ العشاء لديها ، لم تفارق منزلي إن صح التعبير . كما أنني يا صديقي لا احب أن أراك تهجر علاقتك بالمجتمع ، ولا أن تنسى مشاغلك ومؤلفاتك ، إذ سيفترى عليّ بغرابة بعدها ، ألا يقولون انني أقيدك بسلسلة ؟ وانني ألهيك . إنني اخشى المقارنات ، واريد أن أجعل الناس يتحدثون عني ايضا ، فانا حريصة على ان احتفظ بانتصاري ، لأنني اعلم انه الاخير . من يمكنه ان يخمّن انك صديقي الوحيد ؟ إذا كنت تحبني بقدر ما تقول فادفع الناس الى الاعتقاد بأننا بشكل بسيط ، مجرد اخ واخت واستمر في ذلك » .

كان دارتز دائما متاثرا بهذه الرقة الفائقة التي تسوّي فيها تلك المرأة الفاتنة أطراف ثوبها لتحافظ على مظهر أناقتها ، وقد كان في هذا الحديث من الرقة والرهافة ما جعل الدمع يترقرق في عينيه ؛ فالأميرة بعيدة عن كل الشروط الخسيسة والشائعة لدى النساء اللواتي يتخاصمن ويتماحكن متواجهات على الدواوين ، إنها تظهر كبراً خارقاً ، وهي لبست بحاجة للحديث عنه . هذا الاتحاد قد تم بينهما بنبل ، وهو ليس وليد البارحة أو غدا او اليوم ، إنما هو عندما أراده كلاهما دون تلك الأشرطة غير المنتهية التي تسميها النساء العاديات تضحية ، لأنهن يعرفن دون شك كل ما يجب أن يخسرنه ، بينما هذا الاحتفاء نصر للنساء الواثقات من ربحهن .

كان كل شيء في هذه العبارة مبهماً كوعد ، خلواً كالرجاء مع انه اكيد كحق . لنعترف ! هذا النوع من الكبر لا يوجد إلا لدى هؤلاء الماكرات

المتفوقات الشهيرات ، فهن يبقين سيدات في المواقع التي تصبح فيها النساء الأخريات خاضعات ، وقد امكن لدارتز أن يحدد الفرق الموجود بين هؤلاء النسوة والأخريات .

إن الاميرة تبدو دائما مقدّرة وجميلة ، وربما كان سر هذا النبل في الفن الذي تعرف فيه السيدات العظيمات كيف تتعرى من غلالاتهن . إذ يظهرن في ذلك الوضع وكانهن تماثيل قديمة ، فان احتفظن بخرقة اعتبرن ذلك عهراً . اما المراة العادية فتجرب دائما أن تتدثر .

اطاع دارتز ، وهو مكبل بمظاهر الحنان ، ومقيد بأجلّ الفضائل ، وذهب الى السيدة دي إسبار التي بسطت من أجله كل مظاهر غنجها الجذاب ، لكنها حرصت الا تتفوه بكلمة عن الأميرة ، إنما رجته فقط أن يحضر للعشاء لديها في يوم قريب .

رأى دارتز في ذلك اليوم رفقاء عديدين ، فقد دعت المركيزة راستنياك ، وبلونده ، والمركيز آجودا - بنتو ، ومكسيم دي تراي ، والمركيز دي اسفرينيون ، والأخوان فاندنس ، ودو تيّه ،واحد اغنى أصحاب المصارف في باريس وهو البارون دي نوسنجن ، وناتان ، واللادي دودلي ، واثنين من ملحقي السفارة الأكثر مكراً ، والفارس دي اسبار ، أحد أعمق شخصيات ذلك الصالون وهو من يتصف بنصف دهاء امراة اخيه .

قال مكسيم دي تراي لدارتز وهو يضحك : « اترى غالباً الأميرة ديكادينيان ؟ » اجاب دارتز على هذا السؤال بإحناءة جافة من رأسه .

كان مكسيم دي تراي قاتلا مأجورا من صنف رهيب ، دون ذمة أو ايمان ، قادرا على كل شيء ، يدمر النساء اللواتي يتعلقن به ،يجعلهن يرهنّ حليهن ؛ لكنه يغطي هذا السلوك بطلاء برّاق وأسلوب تصرف جذاب ومزاج شيطاني ، كان يوحي للجميع خشية وكرها متساويين ، ولكن ما من أحد يجرؤ على أن يظهر له إلا العواطف اللبقة ، لذلك تعذر عليه أن يلاحظ شيئا عن وضعه فقد إئتلف مع الرياء العام ، وكان الفضل

للكونت دي مارسي في الدرجة الاخيرة من الرقعة التي امكنه الوصول اليها ، فقد رأى ، وهو الذي عرف في مكسيم يداً طائلة ، انه قادر على أن يملأ بعض المهام السرية والدبلوماسية التي يكلفه بها والتي ينفذها بشكل رائع ؛ وكان دارتز منذ بعض الوقت قد تعاطى القضايا السياسية بحيث يعرف تماما الشخصية ، وهو الوحيد على الأرجح ذو الخلق السامي الذي يمكنه أن يصرح بصوت عال عما يفكر به الناس في السر

ـ قال البارون دي نوسنجن بلهجته الألزاسية : لأجلها إذن دون شك اهمل جلسات المجلس النيابي .

ـ آه ! إن الأميرة هي احدى أخطر النساء اللواتي يمكن لرجل ان يضع قدمه في منزلهن ، فهي سبب فضيحة زواجي ، قال المركيز دي اسغرينيون بهدوء .

ـ « خطرة ؟ لا تقل هكذا عن احسن صديقة لي ، إنني لم اعرف ولم أر من الأميرة إلا مايعبر عن العواطف الأكثر رفعة » . قالت السيدة دي اسبار .

ـ دعي المركيز يقول ما يحلو له ، هتف راستينياك ، عندما يطرح احد الخيول الجميلة فارسه أرضاً ، فان الفارس يجد فيه كل العيوب ويبيعــه .

نظر المركيز دي اسغرينيون ، الى دانييل دارتز وقد لسعته هذه الكلمة وقال له : « آمل الا يكون السيد مع الأميرة في درجة تمنعنا من الحديث عنها » .

. لزم دارتز السكوت ، واجاب دسغرينيون ، الذي لا تنقصه روح الفكاهة ، على تعنيق راستينياك ، بأن اعطى صورة تبريرية عن الاميرة جعلت المائدة كلها في بهجة ساخرة ، ولما كان سبب هذه السخرية غامضاً

الى حد بعيد بالنسبة لدارتز فإنه مال على اذن السيدة دي مونكورنه ، جارته على المائدة وسالها عن سبب هذه الدعايات .

« لكن باستثنائك أنت ، وما تشهد به من حكم طيب على الأميرة ، فان جميع المدعوين هنا ، على ما يقال ، كانوا أصحاب حظوة لديها » .

« يمكنني ان اؤكد الك إن هذا الادعاء كاذب » . أجاب دانييل .

ـ مع ذلك هو ذا السيد دى اسفرينيون ، نبيل من منطقة پرش ، افلس كلياً من أجلها منذ اثنتي عشر سنة ، وكاد أن يصل الى منصة الإعـدام .

ـ إنني مطلع على الموضوع ، وقد ذهبت السيدة دى كادينيان الى محكمة الجنايات لانقاذ السيد دى اسفرينيون ، وإليك كيف يكافئها الآن . نظرت السيدة دى مونكورنه الى دارتز بدهشة وفضول شبه احمقين ثم وجهت ناظريها الى السيدة دى اسبار وهي تغمز نحوه بعينها كأنها تريد أن تقول : « إنه مسبي العقل » .

خلال تلك المحادثة القصيرة دافعت السيدة دى اسبار عن السيدة دي كادينيان وكانت في حمايتها لها أشبه بواقية تجذب الصواعق إليها . ولما عاد دارتز للمشاركة في الحديث العام سمع مكسيم دي ترااي يطلق هذه العبارة : « إن انحلال الأخلاق لدى ديان ليس نتيجة إنما هو سبب ، وربما تعود طبيعتها العذبة الى هذا السبب ،فهي لا تبحث ، ولا تبتكر شيئاً ، وإنما تقدم لك الأبحاث الأكثر إرهافاً وكأنها وحي حبٌ ملؤه البراءة ، ويستحيل عليك الا تصدقها .

هذه العبارة التي يبدو انها قد أعدت لرجل على مستوى دارتز كانت من القوة وكأنها خاتمة وخلاصة ؛ وترك الحديث عن الأميرة بعد أن بدا وكأن ضربة قاضية قد وجهت إليها ، وتطلع دارتز الى دى تراي ودي اسفرنييون بنظرة ساخرة وقال :

« إن خطأ هذه المرأة الفادح أنها تقتدي في تصرفاتها بالرجال ، فتبدد مثلهم الأملاك الخاصة بالزوجة ، وترسل عشاقها الى المرابين ، وتبذر المهور ، وتنفق اموال اليتامى ، وتهدم القصور العريقة ، وتوحي وربما ترتكب ايضاً جرائم ، ولكن ...

لم يسمع سابقاً الشخصان المعنيان بكلام دارتز كلاماً بمثل هذه القوة من قبل ، وعند كلمة « لكن ... » بدت المائدة كلها متنبهة ، وكل واحد أبقى شوكته مشرعة في الهواء بينما عيناه تتناوبان النظر الى الكاتب الجريء والى المتجنين على الأميرة ، والجميع ينتظر الخاتمة بصمت رهيب .

تابع دارتز بخفة ساخرة : « لكنَّ السيدة الأميرة ذي كادينيان تفوقاً على الرجال : فعندما يتعرض أحدهم للخطر من أجلها ، تنقذه ، ولا تغتاب إنساناً . لماذا لا يوجد بين البشر امرأة تتسلى بالرجال كوجود رجال يتسلون بالنساء ؟ لماذا لا يأخذ الجنس الجميل بين وقت وآخر بثأره ؟

« إن العبقرية أشد قوة من الفكر » قال بلونده لناتان :

هذا السيل من السخريات الهجائية كانت كنيران بطارية مدافع قابلت طلقات بنادق ، وهرع الى تغيير موضوع المحادثة ، ولم يبد على الكونت دي تراي او على المركيز دي اسفرينيون أنهما مستعدان لمخاصمة دارتز ؛ وعندما قدمت القهوة جاء بلونده وناتان لملاقاة الكاتب بتعجل لم يجرؤ اي شخص آخر على تقليده مادام من الصعب التوفيق بين الإعجاب الذي أوحى به تصرف دارتز ، والخوف من معاداة شخصين قويين .

قال بلونده : لا تعود الى اليوم معرفتنا بأن في طبعك من الكبر مايعادل موهبتك وقد تصرفت هنا ليس كرجل وإنما كإله : لم يتوقع الساخرون أن تندفع ، لا بقلبك ولا بخبالك وتأخذ جانب الدفاع عن امرأة

تحبها ، ترصدوه لك ، كان من شأنه ان يتيح الظفر لهـذا العالم الذي تنهشه الغيرة ضد ذيوع الصيت الأدبي ... آه اسمح لي بالقول إن هذا منتهى التسامي في السياسة الخاصة .

ـ « آه إنك رجل دولة ، فالمهارة في التغلب على صعوبة الانتقام لامرأة دون الدفاع عنها » قال ناتان .

ـ أجاب دارتز ببرود : إن الأميرة هي إحدى بطلات الحزب الملكي ، اليس من واجب كل رجل صاحب قلب أن يحميها رغم كل شيء . إن ما فعلته من أجل أسيادها يبرر أي تصرف اهوج في الحياة .

قال ناتان لبلونده : « لعبته على الحدّ » .

ـ « حتماً ، وكأن الأميرة تحتاج الى كل هـذا العناء » أجاب راستنيياك الذي انضهم إليهم .

ذهب دارتز الى الأميرة ، وقد كانت تنتظره وهي فريسة أشد أنواع القلق ، إذ يمكن أن تكون نتيجة هذه التجربة التي شجعتها ديان مشؤومة ، ولأول مرة في حياتها كانت هذه المرأة تتألم من صميم قلبها ، وتنضح عرقاً وهي في ثوبها ، فهي لا تعلم ماذا سيكون موقفها في الحالة التي يقتنع فيها دارتز بكلام الناس وهم صادقون ، بدلا من الاقتناع بكلامها وهي كاذبة إذ لم يسبق لها أن كان في متناولها طبع بهذه الطيبة ، ورجل بمثل هذا الكمال ، وروح بمثل هذا الصفاء وضمير بمثل هذا النقاء ، وإذا كانت قد دبرت مثل هذه الاكاذيب القاسية فإنها كانت مدفوعة بالرغبة في معرفة الحب الحقيقي ؛ وهي تشعر بهذا الحب يتفتح في قلبها ، إنها تحب دارتز ، وقد اضطرت لخداعه ، لأنها ارادت أن تبقى بالنسبة له الممثلة العظيمة التي لعبت أمهر دور في نظره .

عندما سمعت وقع خطوات دانييل في قاعة الطعام ، أحست بانفعال شديد ورعشة في الصميم . هـذه الرعشة لم تنتابها أبداً خلال

اكثر الفترات مغامرة لامراة من مستواها علمتها عند ذاك انها تقامر بسعادتها ورنت عيناها عبر الفضاء فعانق نظرها دارتز بقوامه الكامل ، رات عبر عضلات جسمه ، وقرات في أعماق روحه : أن الشك ، وجناحه اشبه بجناح الخفاش ، لم يتمكن حتى أن يلامس نفسه . كان عند ذلك لتلك الحركة الرهيبة من الجزع ارتكاسها وكادت الغبطة تخنق ديان السعيدة ، لكن ما من كائن وجدت فيه القوة ليتحمل البؤس إلا وفيه مثيلها ليصمد أمام طغيان السعادة .

هتفت وهي تنهض وتفتح له ذراعيها : « دانييل ، لقد افتري علي وانتقمت لي » من خلال الدهشة الناتجة عن هذه العبارة وجذورها الخفية ترك دانييل رأسه يستلقي بين يدي الأميرة الجميلتين التي قبلته بقداسة في جبهته « كيف عرفت ذلك » .

ـ أوه ، أيها المشهور الأحمق ! ألا ترى أنني أحبك بجنون ؟

منذ ذلك اليوم لم يعد اطرح موضوع الأميرة دي كادينيان ولا دارتز ، فقد ورثت الابنة عن أمها بعض الثروة ، وهي تقضي كل أشهر الصيف في إحدى فيلات جنيف في سويسرة مع الكاتب الكبير ، ولا تعود الى باريس إلا لقضاء بعض أشهر الشتاء . أما دارتز فلا يظهر إلا خلال دورات المجلس التشريعي . أخيراً فإن نتاجه المنشور أصبح نادراً جداً .

هل هذه هي الخاتمة ؟ نعم بالنسبة لأصحاب الذكاء ، وكلا بالنسبة لمن يريدون معرفة كل شيء .

كتبت في جاردي ، حزيران ١٨٣٩

دراسة حول القصة والمؤلف

اعداد : آن ماري مييننجه

إن بلزاك « لايخترع شيئاً » وهنا أقل مايكون . وقد بينا(١) أن الحياة الحقيقية « لأميرة باريسية » ـ ـ وهو العنوان الأول لهــذه القصة ـ قد أملت عليه حكاية ديان دي كادينيان . ـ

كتب اندره موروا(٢) في المناسبة ذاتها : « إن الطبيعة صنعت عملها الفني ، واشراقة العبقرية قد اكتشفت التحفة » ولفهم التحفة جيداً ، يجب إذا التعرف على الأصل الفني أي على النموذج الحقيقي ، وفي البدء استبعاد بعض النماذج الكاذبة من ذوات الحياة القاسية .

استمد أحد هذه النماذج من إيتكار خالص بسيط وهو « دوقة دي اسكلينياك الجميلة من عائلة تاليران ـ بريغور الممثلة من قبل السيد بلزاك تحت اسم الدوقة دي موفرينيوز ، أميرة كادينيان » . إن لامبينه خالق هذا التثبيت الجازم يلائم له عدة أسباب موجبة : « فأمــيرته تتمهر لمنفــذي الأحكام من أجل وقف تنفيذها ، وهي تكــره يــوم السبت لأنه اليوم الذي تغسل فيه قدميها » لكن لامبينه المتعاظم ربما انطلق من اشاعة معينة : أن لم تكن « الأميرة الباريسية » الحقيقية هي تاليران ــ بريغور ، فإنها حماة تاليران ــ بريغور .

---

(١) آن ماري مييننجه : السنة البلزاكية ١٩٦٢ ـ ص : ٢٨٣ ـ ٣٣٠ .

(٢) اندره موروا : بروميتيه أو حياة بلزاك ـ ص : ٤٥٠ .

حلة أخرى كاذبة هي الاميرة دي ليفن ، فمن علاقتها الحميمة مع غيزو استنتج ارنست دوره جازماً « انها قد أوحت بقصة بلزاك(١) مستنداً الى دليل غريب وقليل الأمانة » إن ماضي السيدة دي ليفن وهي بطلته قد حرف إرادياً ، ودون أن يقدم أي تفسير لاختياره الشاذ من بين العديد من العلاقات الباريسية الشهيرة ، يشير إلى أقل النماذج الممكنة شبهاً بسبب شخصية دوروتي دي ليفن، روسية متقدمة في السن أرملة، سيدة مجتمع مهتمة في أن تلعب دوراً في السياسة الأوروبية (حيث غيزو) لمصلحة البوليس القيصري واخوها أحد قادته ، واخيراً امرأة كامدة القلب والجسم ، وهي وفقاً لرموزا « فرس رهوانة كبيرة ، نحيلة ، بارزة التقاطيع ، جافة ، أنفها المستدق أحمر كعينيها الصغيرتين والمريضتين(٢) » . إن هذا يستلزم من بلزاك أن يشوه ارادياً ، عدا الماضي ، شخصية هذه الرهوانة العالمية ليحولها إلى ديان دي كادينيان ، العاشقة الحمقاء ، والأميرة الباريسية الشقراء الناعمة .

أما رؤية المركيزة دي كاستري نموذجاً جزئياً لديان ففيه اساءة ظن ، في آن واحد لبلزاك وديان ، فطبيعة بلزاك المرحة يجب الا تخدع : لقد تأمل عن بعد نموذج بطلته لكي لا يكون لهذه الوردة أشواك تؤثر به ، وديان هي النقيض التام جسدياً وأخلاقياً للمركيزة دي كاستري ، صهباء ، شديدة النحول ، مغناج عاجزة ، بعيدة كل البعد عن الشقرة الحيوية والاستدارات اللدنة ، وعاجزة عن هذه القابلية ، وهذا العنفوان والاقبال على الحياة وحب « المسرات الأرضية » التي تبرهن عليها ديان كل لحظة . في هذا الصدد إذا وجب قطعاً تحديد نموذج جزئي قريب الى بلزاك ، فإن السيدة غيدوبوني ـ فيسكونتي تشكل إمكانية أكثر قبولا .

---

(١) « حياة سفيرة » ـ ص ٣٧٦ .

(٢) رمُوزا (الكونتة كلير اليزابيت) « ١٧٨٠ ـ ١٨٢١ » كانت هي وامها مقرّبة من جوزفين زوجة نابوليون الاولى ، وكانت مقربة من نابوليون قبل طلاقه لجوزفين وتمكنت ان تسجّل كثيراً من الاحداث التاريخية في مذكراتها ورسائلها التي نشرها حفيدها في الأعوام (١٨٧٩ ـ ١٨٨١) (ملاحظة المترجم) .

ومن جهة اخرى فإن المركيزة دي كاستري بقبت تنعم بالثراء وتسكن ضاحية سان جرمن ، بينما ديان قد تدمرت وعاشت في شقة صغيرة في قلب ضاحية سان أونوره الحي السياسي والحديث. أخيراً فالمركيزة وهي طعم اناني بارد سببت العذاب لبلزاك ، بينما دارتز لم يعان في اية لحظة العذاب ؛ وإذا كانت ديان تمكر فلتجذب وترضي الحب وليس لدفعه ؛ والسعادة التي تمنحها أخيراً هي الوهم القديم لبلزاك : حب ارستقراطية يتوج نجاح الكاتب ورجل السياسة .

هذا الوهم حققه ثنائي في الفترة ذاتها التي كان بلزاك يكتب فيها قصته : الكونت مولي[1] الذي سيطر على الحياة السياسية خلال ثلاث سنوات كرئيس مجلس وزراء ، أما تلك التي منحت دارتز ، الرجل المرموق ، السعادة ، فقد كانت هي أيضاً معروفة جيداً : إنها كورديليا دي كاستلان .

امرأة لا مثيل لشفرتها ، غريبة الأطوار ومرهفة العقل ، وقد كانت إحدى ملكات باريس حتى إفلاسها في نهاية عهد عودة الملكية ، وعزمت عند ذلك على أن تعيش طي النسيان بعد أن غدت فضائحها حديث الناس؛ ثم عادت الى باريس بعد عدة سنوات واستقرت في شقة صغيرة على بعد خطوات من مقرها القديم المترف في ضاحية سان أونوره ، وفي عزلتها تلك ندرت استقبالاتها واقتصرت على بعض النخبة من رجال الفكر وصديقة واحدة : هي الدوقة دي دينو .

كان المجتمع يعرف ذلك ، وقد عرفه بالقياس ، قارىء **أسرار الأميرة دي كادينيان** : فديان قد اعتزلت المجتمع لكنها كانت تستقبل في وسطها الحميم بعض كبار الرجال الذين عرفت كيف تميزهم وتحتفظ بهم ، ولم يكن لها إلا صديقة واحدة هي المركيزة دي اسبار . أما كيف

(1) الكونت مولي (لويس ماتيو) : رجل دولة فرنسي ولد في باريس (١٧٨١ ـ ١٨٥٥) ، تولى رئاسة الوزارة في عهد لويس فيليب من ١٨٣٦ إلى ١٨٣٩ (ملاحظة المترجم) .

تمكنت كورديليا من « تحييد » زوجها ، وتزويج ابنها ، والظفر بمولي عاشقها الاخير ، فهذه هي « اسرار » حياتها ، ومصدر هذا العمل الفني الذي فهمه بلزاك ، وأملى عليه قصته ، بل واملاها وحده .

من ناحية الابداع الروائي . فإن رأي الروائي هو بصورة خاصة الراي الكفء : والحال أن آندره موروا قد كتب : « ان الطبيعة تبدي عناصر يستغلها الفنان ، ومع ذلك يحدث أن الحياة ، بمصادفات عجيبة

تقدم للكاتب شخصيات ؛ بوجودهـا الواقعي ، أو بعض تعديلات تكاد لا تدرك يمكن أن تدخل مباشرة في رواية » وهكذا يستخلص الكاتب أن كورديليا دي كاستلان قد أصبحت « بدقة » دبان دي كادينيان .

« بدقة » سيكون الإثبات طويلا ، وقد سبق أن أجريناه ؛ ويكفي أن نذكر المطيات الرئيسة التي اعتبرها بلزاك متراكمة بالضرورة: فمن البداية حتى الخاتمة نجد من ديان الى كورديليا : الولادة ذاتها في العام ١٧٩٦ ، الزواج ذاته في السابعة عشر من العمر وتطابق شروط ومهر ، مثيرة الدهشة العامة ذاتها لرؤية الجمال الأشقر الساحر لفتاة يافعة غنية جداً تزف الى رجل مستهلك، غارق في الديون وفاقد الاعتبار، ومن النبلاء العريقين . فآل كادينيان من الملاكين كآل كاستلان لكن بسمعة سيئة : فهم تقليدياً ، يدمرون ثروات نسائهم ؛ « وثروة كورديليا استهلكت على يد حميها وزوجها » ووفقاً لكلامها بالذات ومنذ نهاية عهد عودة الملكية فإن الأراضي والقصور التي تملكها في نيڤرنه قد أصبحت هباءً ، في الوقت ذاته ضاعت أراضي ديان وقصورها ، في نيڤرنه ايضاً .

أزواج مدمرون ، ماجنون ، لكن لهم مكانتهم في علية المجتمع وهم من العسكريين المرموقين : فكادينيان عقيد آمر لخيالة الحرس الملكي ، بل وشجاع أيضاً ، ووفقاً لعبارة ممسوحة لبلزاك « فقد أبلى بلاءً حسناً عند حصار قادس » . أما العقيد دي كاستلان فقد كان آمراً لمفرزة خيالة قادس ، ثم أصبح قائداً في ١٨٢٢ لفرسان الحرس الملكي .

كل شيء محسوب لدى « مؤرخ الطبائع » حتى العائلات والأسماء. فتشوش المصاهرات بين آل نافارين وآل لننكور من ناحية كادينيان يقابله تشوش لدى آل كاستلان مع آل لاروشتفوكو وآل روهان ، والوريث هنري دي كاستلان «ذو الوجه الصبوح الذي يذكر بأمه» يقابله جورج دي موفرينيوز الذي تقول عنه ديان : « إنك تدهش لتشابهه معي» وإذا كانت أم ديان من آل أوكسل (وتلفظ أوسل) فأم كورديليا من آل أوبوسون، وهذان الاسمان متقاربان كتقارب أوبسون وأوسل في مقاطعة الاوفرني .

أما ما يتعلق باسم كادينيان ، فكان أولا كارينيان في **السيدة فيرمياني** والحال ففي عهد عودة الملكية ، تعرضت أميرة من آل كارينيان وكونتة دي كاستلان لحادث مشترك شهير ومؤلم فقد وضعت النار في ثوبيهن فقضت الواحدة كما الأخرى محترقتين بشكل مؤلم(١) .

من ناحية كورديليا ، يشير رموزا ، وهو راستينياك في القصة ، الى أن « خير ما فيها هي الشجاعة التي تعرف كيف تتحلى بها في مواضع الألم والمصيبة ، فأصعب المواقف لا تجدها دون قدرة او دون موارد » والشجاعة لا تنقص أبداً ديان ولا «عنفوان الروح ، أو جلاء التقدير ، أو يقظة التقرير ، أو اللامبالاة ، أو اتخاذ موقف من بعض أشياء يرتعد منها الانسان » .

باقترانهما بكائنين ضعيفين ، يضاف إلى أن أحدهما «كامد نكد » والآخر « ذو ذهن مغمم » « تظهر من هاتين السيدتين ردود فعل متوقعة ، فالسيدة دى كاستلان تلاحظ سريعاً أنها قد ارتكبت حماقة وأن ليس لديها طريقة أخرى لاصلاحها إلا بارتكاب حماقات أخرى » وهذا ما فعلته ببعض الدوي . كذلك كانت ردة فعل ديان مغامراتها صاخبة .

---

(١) يموزا : أخبار الدوقة دي دينو

اما الزوج ، « فالدوق قد ترك لامراته حرية كاملة في تصرفاتها ، وذهب يلهو من معسكر الى آخر ... مجاهراً بتسامح زوجي كامل ، منبئاً الدوقة مسبقاً قبل ثمانية ايام عن موعد عودته إلى باريس » ، اما كاستلان فيقيم حفلات الرقص والأعياد من معسكر إلى آخر « وهو في قرارة نفسه رجل غير أخلاقي ، وقد تلاءم جيداً مع تصرف زوجته ... وهوالمنفصل عنها دون انقطاع ولمدة طويلة ، لكنه لم يقطع علاقته معها فعندما يكون في باريس ، يصعد لديها لنحو نصف ساعة في السهرة ... ثم ينصرف .

عندما حل الخراب والنسيان ، يكلف بلزاك راستينياك وبلوندة بالتذكير بالماضي الشهير والمشين لديان : حوادث طيشها الاولى مع دي مارسي ، ثم تناقضاتها الثانية مع دي آجودا ... ثم ارتباطها الثالث مع دسفرينيون الشاب ... ثم كم كانت تعيسة مع سفير مشهور ... وكيف كانت مسموعة الكلمة لدى وزيري خارجية » . إذا كانت الأسماء البلزاكية المعروفة للنزوات الثلاثة الأولى لديان تبدو ، عند الاقتضاء ، بريئة ، فماذا يقال عن الآخرين ؟ عندما نعرف شهرة علاقة كورديليا بشاتوبريان في الفترة ذاتها التي كان فيها وزيراً للشؤون الخارجية ثم « سفيراً شهيراً » ، وعندما نفكر ان مولتي بقي خلال ثلاث سنوات وزيراً للخارجية ، هو ايضاً ؛ إن مثل هذه التلمبحات تنم خاصة عن أشياء صريحة .

سيكون من الحمق ايضاً ان نتهم بلزاك بإفشاء الأسرار اعتباطاً وبشكل مبتذل أو بنقص في مخيلته ، لكنه وهو « المؤرخ أكثر منه روائياً » يجد انه أقل حرية في تعديل هذه الأسباب التي ادت الى تلك النتائج في حكاية كانت استثنائية كما كان استثنائياً العمل الفني الذي قدمته إليه الطبيعة والتطرق إلى الأحداث المعاصرة ، إذ في الفترة التي كتب فيها بلزاك قصته كان على اطلاع بأصعب قضيتين ربحتهما الكونته دي كاستلان : استعادة الحظوة لدى مولي ، وزواج ابنها .

قصة ديان الجذابة الماهرة المدمرة ، وقد كتبت في حزيران ١٨٣٩ ، تبدا في الفترة المحددة التي كانت تخطط فيها لتزويج ابنها بواحدة من أغنى وانبل الوارثات في **الملهاة الانسانية** « وربما كان هذا المشروع ، على ما يلاحظ بلزاك ، هو سر المودة التي حافظت عليها مع المركيزة » ، وهو يجعل المركيزة دى إسبار تقول من جهتها : « آه ، إنها رائعة في معاملتها لابنها .. من كان يعتقد أن هذه المرأة الخفيفة قادرة على هذا التصميم الذي اتبعته بعناد ، وهكذا فإن بطريركنا الطيب الذي شجعها بدا في غاية الوفاء معها ، بل إنه قد أقنع والدة الوريثة » والحال ففي تشرين أول ١٨٣٨ سجلت الدوقة دى دينو في مذكراتها : « رايت كثيراً ، في الأيام الأخيرة،كونتة دي كاستلان تنشط بطريقة غير معقولة...إن هذا يبرهن على الوضع الذي ستكون عليه ابنتي التي تريد زواجها بهنري الشاب ... لقد استشرت البارحة سيادة البطريرك الذي بدا لي انه وجد من جميع ما ثبت حتى انوقت الحاضر ، أن هنري دى كاستلان يبشر لكفاءته الشخصية بالحظ الأكبر لسعادة أسروية(١) » . « لم يكن يصدق هذا » ، هذا « لا يصدق » ومع ذلك ... ففي ٩ نيسان ١٨٣٩ تزوج هنري دي كاستلان ابنة الدوقة ، بولين دي تاليران — بريغور إحدى أغنى وانبل الوارثات في فرنسة .

في اقترابه من خاتمة القصة يجيز بلزاك لنفسه هذه الملاحظة : « بين هاتين المراتين الشهيرتين في المجتمع الحالي توجد واحدة اقوى من الأخرى ، وكانت الأميرة تهيمن بذكائها على المركيزة » . لقد برهن زواج ولد الكونتة دي كاستلان على تفوق كورديليا الشهيرة هي أيضاً رغم عزلتها .

إن قراءة **مدرسة العائلات الحديثة** لدى كوستين ، في نيسان ١٨٣٩ قد هيأ لبلزاك أن يعجب بقوة كورديليا مع كوستين وهو جار في الريف لآل كاستلان : ومع ستندال أيضاً الذي قدر مولي والسيدة دي كاستلان

(١) اخبار الدوقة دي دينو ، الجزء الأول ، ص ٢٦٠ — ٢٦٣ .

وكان قد انهى كتابة **حبيسة بارم** التي أعجب بها بلزاك كثيراً ، وخاصة بسرده حكاية رئيس الوزراء موسكا والفاتنة المفتقرة سانسفرنيا . والحال أن الملامح الوحيدة لحياة ديان غير المستمدة من حياة كورديليا ـ هي الهيام الصافي واليقظ الذي ابداه لها الشاب الجمهوري ميشيل كرستيان ، والخلوة التي تمت لديها للمتآمرين على الملك في غفلة عن عشيقها رئيس الوزراء ـ ويبدو ان هذا المقطع يرد مباشرة من هيام الجمهوري فِرّانت پالا بسانسفرنيا والمؤامرة التي حيكت لديها ضد الأمير وفي غفلة من الكونت موسكا .

إن واقعة قسم تم ربحه بمهارة مكّنت من توليد فكرة كتابة الرواية، لكن القسم الآخر المكتسب ـ وهو حب رجل متفوق ـ اصبح هو الموضوع الرئيس ، وهنا تكمن قيمة **التحفة الفنية** ؛ وقد كان بلزاك واعياً لذلك حيث كتب في ١٥ تموز ١٨٣٩ الى السيدة هانسكا : « إنها أكبر كوميديا أخلاقية وجدت . إنها تراكم أكاذيب تمكنت بواسطتها امراة في السابعة والثلاثين من العمر ، هي الدوقة دي موفرينيوز ، وقد اصبحت بالوراثة الأميرة دي كادينيان ، أن تظهر بمظهر قديسة ، وفاضلة ، وفتاة متيمة أمام عاشقها الرابع عشر ... والتحفة الفنية هي في إظهار هذه الاكاذيب وكأنها صحيحة وضرورية ويبررها الحب » .

من حسن الحظ ، ومن أجل ان نعجب في آن واحد بالأميرة الباريسية الحقيقية وببلزاك ، أن الكونت مولي قد كتب **مذكراته** ؛ وهيامه اللامبالي بالسخرية « بالملاك » الذي جعله « اكثر تدينا ، وأكثر تدقيقاً ، رجلاً أفضل(١) » هو هيام دارتز ، وفي تقدم وتراجع فصول القصة ، ما من مقطع يجب تغييره : فالقراءات مدققة ، والفن خارق في « إظهار تبرجات الروح والجسد الجميلة » ، وارتباكات المعجب ، المفرط في وقاره ، ثابتة . حتى توقيت الرواية لا يتغيّر ، « والأسرار » حيث

---

(١) مذكرات مولي ، الجزء الخامس ، ص ٢٨٠ .

ديان تكبّل دارتز وهي تتحدث عن طفولتها ، ويفاعها ، والظروف الخاصة التي احاطت بزواجها ، وفساد اهلها ، وزوجها ، وامها ، مضيفة بعد ذلك : « بعد عشرين سنة من المصائب وخيبات الرجاء ، والافتراءات المتحملة ، والملل القاتل والمسرات المجهضَة ، الا اكون مستعدة لأجثو على قدمي رجل يحبني بإخلاص والى الأبد .

في **مذكرات مولي** ، كل شيء قد سجل حتى التفاصيل الأكثر خصوصية ، وعندما ازفت ساعة الرواية لدى السيدة دي كاستلان قالت له : « اجلس ، ولنتحدث بجد : كانت مستعجلة لنقص عليّ كل ما فعلته وما فكرت او شعرت به منذ ولادتها ، طفولتها ويفاعها ، والظروف التي رافقت زواجها المشؤوم ، ومكيافلية الأهل الجهنمية ، وانتهت بأن هبطت الى أسرار أحزانها الحالية والفسادات المترعة التي أحاطت بها . **الأسرار** .. قالت له أخيراً بأن أخطاءها وآلامها بينت لها قيم الحسنات التي افلتت منها ، واحست بدرجة من الهوى تعود إلى ما عانته من تجارب ونكبات .

ذلك أن الأميرة الباريسية الحقيقيةلم تكتف بأسر قلبرجلها العظيم، وإنما استعادته مجدداً ، فقد كان مولي عشيقها الأول ، وكانت تقول إنه كان هواها الوحيد الحقيقي ، وإن مؤامرة سوداء ابعدته عنها ، لكنها أملت دائماً أن يعود اليها : « يوجد شيء من التمثيل في طريقة تركيب عواطفها وحياتها لاحظت رِمُوزا ، لأنها مكيّفة كبيرة(١) . »حول موهبة ديان ، وهي ايضاً مكيّفة كبيرة للغاية ، ومن أجل « تركيب عواطفها وحياتها » ، والوصول إلى النتائج ذاتها ، تقيم « أكبر كوميديا أخلاقية(٢) » كل عرض **اسرار الأميرة دي كادينيان** ، وفضلا عن ذلك ينسب إليها بلزاك فكرة غريبة كأنها هفوة ، « نعم ، إن تحت العديد من التجارب يكمن حب اول يمكن أن ينخدع » .

---

(١) رِمُوزا : الجزء الثاني والثالث من مذكراتها .

(٢) كما وصفها بلزاك في رسالته للسيدة هانسكا بتاريخ ١٩ تموز ١٨٣٩ .

ان تتمكن كورديليا بعد عشرين سنة من علاقتها الأولى مع مولي ، وبعد مجموعة مغامرات متوسطة الصخب أن تستعيده ، يبدو حدثاً متميزاً لا يقل في تذليل عقباته عن صنيع ديان ، وقد كان الدوق دي فيتز جامس الذي يعرفها منذ مدة طويلة ، وبحبها كابنته ،بمثابة موضع سر الكونتة، وربما عرف بلزاك عن طريقه او عن طريق ابنة اخته، المركيزة دي كاستري ، قصة « الأسرار » ، قصة كتلة الأكاذيب التي تمكنت بفضلها أن تجدّد لدى مولي ، ولبقية عمره إيماناً كاملاً ، إيمان منتصري أيام ازدهار المسيحية ، إيمان دارتز .

لكن إن كانت الأسرار قد خلصت إلى احاطة مهارة « الممثلة الكبيرة » بالاعجاب ، فإن بلزاك قد عرف كيف يفهم أن انتصارها هو انتصار الحب الحقيقي ، « **فالتحفة الفنية** » ليست فقط في أنها قد « وجّهت الأنظار » وإنما في انها قد رأت في البدء الأكاذيب وكأنها صحيحة وضرورية ومبررة بالحب .

آن ماري مييننجه

فاسينو كان

FACINO CANE

قصة من الحياة الباريسية

فاسينو كـان

كنت أسكن سابقاً في شارع صفير لا تعرفونه على الأرجح ، إنـه شارع لديفير : وهو يبدأ من شارع سان ـ انطوان ، مقابل نافورة مـاء قرب سـاحة الباستيل ، وينتهي في شـارع لا سيريزه ، ودفعني حب العلم الى سقيفة أعمل بها خلال الليل ، واقضي النهار في المكتبة المجاورة ، إنها مكتبة مسيو(١) . كنت أعيش بزهـد ، وارتضيت جميـع شروط الحياة الديرية الضروريـة للمكدين ؛ أتنزه قليـلا في جـادة بوردون عندما يكون الطقس جميـلا ، وكانت هـذه هي الهواية الوحيـدة لي غير عاداتي الدراسية ، لكن اليست هي دراسة أيضـاً ؟ إذ من خلال ذلك الاحظ طبائع الضاحية ، وسكانها ومزاياهم . كانت ثيابي كثياب العمال ، وكنت لا مباليا باللياقة فلم أكن أثير انتباه الناس ، ويمكنني أن اختلط بجموعهم وأراهم يمارسون صفقات البيع والشراء ويتجادلون في موعـد مغادرتهم لأعمالهم ؛ بحيث أصبحت الملاحظة لدي بديهية ، تتغلغل الى النفس دون أن تهمـل الجسـد ، أو بالأحرى تتناول جيدا وبسرعـة التفاصيل الخارجية وتنتقل مباشرة إلى ما بعدها ، مما يعطيني القدرة على تمثل حياة الفرد كمـا يمارسها تماماً ويتيح لي أن أتصور نفسي كدرويش ألف ليلة وليلة الذي يتقمص الأشخاص روحا وجسدا بعد نطقه بعد نطقه ببضع كلمات .

صادفت بين الحاديـة عشرة ومنتصف الليـل عاملاً وزوجتـه عائدين سوية من مسرح الامبيغو ـ كوميك(٢) ، واستمتعت بتتبعهما من

(١) هي مكتبة الارسنال حاليا .

(٢) مسرح شعبي يعرض مسرحيات ماسوية هزلية .

جادة پون ــ أو ــ شو حتى جادة بومارشه . كان هؤلاء الأشخاص الطيبون يتحدثون أولا عن المسرحيــة التي شاهدوها ، ومن موضــوع الى آخر يصلون الى مشاغلهم ، والأم تجر ولدها من يده دون أن تبالي بطلباتــه أو شكاويه ، والزوجــان يحسبان الدراهم التي ستدفع لهما في اليــوم 'لتالي ، ويجد أن عشرين طريقة لانفاقها ، ثم يتطرقان الى تفاصيل الحياة الزوجية ، والشكاوى من ثمن البطاطا المرتفع ، أو من طول مدة الشتاء وغلاء سعر أقراص الزبدة ، ويعرضان بحماسة ما يتوجب عليهما دفعه للخباز ، وأخيرا تتفاقم مناقشاتهما معبرا كل منهما عن طبعه بكلمات مثيرة .

بسماعي حديث هؤلاء الأشخاص أستطيع تقمّص حياتهم واشعر عندئــذ بأسمالهم على ظهري ، وأسير وقدماي في أحذيتهم المثقوبــة ، وروحي مثقلة برغباتهم وحاجاتهم ، فكأن هذه الروح حلت في أجسادهم .

إنه حلم رجل واعٍ ، اتحمس معهم ضد رؤســاء المعامل الذيــن يضطهدونهم ، أو ضد الاجراءات السيئة التي تجعلهم يعيدون العمل عدة مرّات دون أن يدفع لهم . كانت تسليتي أن اتخلى عن عاداتي واصبح انساناً آخر بنشوة قدراتي المعنوية وكنت أمارس ذلك عندما أريد ، من أين لي هذه الموهبة ؟ أهو استبصار ؟ أهي إحدى الميزات التي تقود المغالاة فيها الى الجنون ؟

لم أبحث أبدآ ن أسباب هذه القدرة ، إنني أملكها وأستخدمها ، هوذا كل شيء ، لكن اعرفوا انني منذ ذلك الوقت فككت عناصر هــذه الكتلة غير المتجانسة المسماة الشعب لأتمكن من تحليلها بطريقة أقوّم فيها حسناتها وسيئاتها ؛ وقد عرفت عند ذلك اي فائدة يمن أن تقدمها هذه الضاحية ، هذا المنتدى من الثورات الذي يضم أبطالاً ، ومخترعين ، وعلمــاء عمليين ، وخبثاء ، وأثيمين ، وفضائل ورذائل وكلهــا مكظومة بالبؤس ، مخنوقة بالحاجة ، غريقة باحتســاء الخمر ، مبتذلة بالمشروبات القوية . لا يمكنكم أن تتصوروا عدد المغامرات الضائعة ، وعدد المآسي المنسية في مدينة الآلام هذه ! وكم فيها من أشياء رهيبة وأخرى ممتعة !

إن المخيلة لا يمكن ان تصل ابداً الى الحقيقة المحتجبة في هذه المدينة ، وما من احد يمكنه ان يذهب لاكتشافها . يجب الهبوط الى أدنى المستويات للعثور على هذه المشاهد الجديرة بالاعجاب لمأساويتها او سخريتها ، إنها تحف ولدتها الصدفة .

لا اعلم كيف صمت طويلاً عن القصة التي سأسردها عليكم ، وهي تشكل واحدة من هذه القصص المثيرة للفضول المستقرة في مخزون الذاكرة ، وهي تخرج فيها كيفياً كأنها أرقام اليانصيب .

إن لدي قصصاً أخرى ، لا تقل طرافة عن قصتي هذه ، لكنها متوارية ايضاً في هذا المخزون ، لكن سيأتي دورها ، ثقوا من ذلك .

في أحد الأيام رجتني منظفة غرفتي ، وهي زوجة عامل ، أن اشرّف بحضوري عرس إحدى اخواتها ؛ ولتدركوا ما يمكن أن يكون هذا العرس ، يجب أن أخبركم أنني ادفع لهذه المخلوقة المسكينة اربعين فلوس قرّبها إلي البؤس ، ولم أستطع يوماً أن اقدم إليها اكثر من عشرة ثيابي ، وتكنس غرفتي ، وتحضّر غدائي ، ثم تذهب فتقضي بقية يومها في إدارة مقبض آلة ميكانيكية لقاء عشرة فلوس في اليوم الواحد ، اما زوجها وهو نجار فيكسب أربعة فرنكات ، ولما كان لهذه العائلة ثلاثة أولاد ، فكسبهم يكاد لا يكفيهم خبز يومهم . لم ألق أبداً استقامة أشد وفاءً من تلك التي يتجلى بها هذا الرجل وامرأته ، عندما تركت الحي ، وخلال خمس سنوات ، كانت الأم ڤايان تأتي لتهنئني بعيد ميلادي وهي تحمل لي باقة ازهار وبرتقالاً ، هذه المرأة لم تدخر يوماً أكثر من عشرة فلوس قرّبها إلي البؤس ، ولم أستطع يوماً أن اقدم إليها أكثر من عشرة فرنكات أستعيرها غالباً لتلك المبادرة . إن هذا يمكن أن يشرح وعدي بالذهاب الى العرس ، إذ نويت أن اقاسم هؤلاء الناس المساكين فرحهم .

كانت الوليمة وحفلة الرقص لدى تاجر نبيذ في شارع شارنتون ، في الطابق الأول ، في غرفة واسعة مضاءة بمصابيح ذات عواكس من

التنـك ، وهي مفروشة بورق وسخ حتى ارتفاع المناضد ، وعلى طول الجدران توجد مقاعد من خشب . في هذه الفرفة تجمـع نحو ثمانين شخصاً متهندمين ، يحملون باقات الزهر وشرائط ، يتحركون ببهجـة رواد كورتي(١) . وقد احمرت وجوههم وهم مستغرقون في الرقص كأن العالم سينتهي غداً ،والعروسان يتبادلان القبل بين استحسان الحاضرين وزغاريدهم الفكهة لكنها فعلاً أكثر احتشاماً من الغمزات الخجلى التي تبدر من الفتيات المهذبات ، وكل هؤلاء الناس يعبرون عن انشراح زائد يسري كالعدوى .

لكن لا سحنات هؤلاء البشر ، ولا العرس ، ولا شيء في هذا الجمع يمت الى قصتي بصلة ، إنما أردت أن ابين لكم غرابة المحيط وأصور منظر هذا الدكان البشع المدهون بالأحمر الذي تفوح منه رائحة الخمر ، وأسمعكم صرخات البهجة وأضعكم وسط هـذه الضاحية ، بين هؤلاء العمال والشيوخ والنساء التعسات المنصرفات الى فرحة ليلة واحدة .

كانت الفرقة الموسيقة مؤلفة من ثلاثة عميان من ملجأ كينز ـ ڤين(٢)، وكان الأول عازف كمان والثاني لاعب مزمار ، والثالث صافر شبابة . وثلاثتهم يتقاضون سبعة فرنكات عن الليلة ، ومن المؤكد انهم بهذا السعر لن يعزفوا الحـان روسيني أو بتهوڤن ، وإنمـا يؤدون ما يريـدون وما يستطيعون ، وما من أحد ، في مراعاة لطيفة لوضعهم ، يوجه إليهم أي لـوم .

بعد أن ألقيت نظرة على هذا الحشد ، والموسيقى تصم أذنيَّ ، لفت انتباهي ثلاثي العميان ، وأحسست ، وأنا أتعرف عليهم ، من بزّاتهم بشعور بالشفقة .

كان هؤلاء الفنانون أمام فتحة نافذة ، لذلك يجب لتمييز سحناتهم الاقتراب منهم ، وهذا ما لم أفعله سريعا ، لكنني عندما أصبحت الى

---

(١) قرية قريبة من بلفيل قامت بها في مطلع القرن التاسع عشر حانات يتجمع فيها صغار البورجوازيين والتجار وعمال العاصمة .

(٢) أو ملجأ (١٥ ـ ٢٠) المقام منذ العام ١٧٨٠ في دار الفرسـان السود في شـارع شارنتون ـ ضاحية سان انطوان .

جانبهم ، غابت عني الموسيقى والعرس واستثير فضولي الى اعلى درجة، وتملكني شعور واحد ، كأن روحي قد انتقلت الى جسد لاعب المزمار ، فلعازف الكمان والصافر بالشبابة كليهما وجه عادي ، الوجه المعروف لأعمى ، المليء بالانتباه المركز المرهف والحاد ؛ أما وجه لاعب المزمار فاحدى هذه الظواهر التي تستوقف فجأة الفنان والفيلسوف .

تصوروا قناع دانتي الجبصيني وقد أضيء بلهب المسرجة الأحمر وعلته غابة من شعر أبيض فضي ، وتضخم التعبير المر والمؤلم لهذا الرأس الرائع بتأثير العمى ، لأن العينين الميتتين تحييان بالفكر فينطلق منهما بريق حارق ، ناتج عن رغبة وحيدة ، مستمرة ، مرتسمة بقوة على جبهة محدبة تقطعها تجاعيد شبيهة بمداميك جدار قديم ؛ كان هذا العجوز ينفخ كيفما اتفق دون أن ينتبه لا للحن ولا للايقاع ، واصابعه تنخفض أو ترتفع تحرك المفاتيح العتيقة بآلية الاعتياد ، فلا يكلف نفسه باجراء ما يسمى فيتعابير الاوركسترا «الأصوات الصارخة» والراقصون لا تبدو منهم اي ملاحظة ، وكذلك مساعداً إيطاليّ هذا ، لأنني أردته ايطالياً ، فهو إذاً ايطالي .

شيء ما كبير وطاغ نلقاه في هذا العجوز الشبيه بهوميروس والمحتفظ في ذاته بأوديسة محكوم عليها بالنسيان ؛ إنها عظمة بلغت من حقيقتها انها تنتصر على حقارتها ، وإنها استبدادية بلغت من حيويتها أنها تهيمن على الفقر .

ما من هوى من الأهواء العنيفة التي تقود الرجل الى الخير أو الى الشر ، وتجعل منه مجرما او بطلا ، ينقص هذا الوجه النبيل التقاطيع ، الايطالي الداكنة المظلل بحواجب وخطها الشيب تلقي بظلالها على وَقبين عميقين يثيران الرعشة لرؤية وميض الفكر يبرق فيهما كبريق الذعر لرؤية فوهة مغارة يبرز منها بعض قطاع الطرق وهم يحملون المشاعل والخناجر . يوجد أسد في هذا القفص من اللحم ، أسد تخامد غضبه عبثاً على حديد قضبانه ، ولهيب القنوط انطفأ في رماده ؛ لقد بردت اللابة(١) ، لكن اثلامها ، وتشويشاتها ، وقليل من دخانها تشهد على عنف الاندفاع ، وفتك النيران .

---

(١) اللابة Lave : الحمم الملتهب المنطلق من فوهة البركان . كلمة معربة (المترجم) .

هذه الأفكار التي أيقظها مظهر هذا الرجل كانت مضطرمة حارة في روحي بقدر ما هي خامدة باردة في وجهه .

بين كل استراحتي رقص ، كان عازف الكمان وصافر الشبابة ينشغلان كليا بكأسيهما وزجاجة نبيذهما ، فيعلق كل منهما أداته الموسيقية بزر معطفه المائل الى الحمرة ، ويتلمس بيده منضدة صغيرة موضوعة على فتحة النافذة حيث وضع مشروبهما ، ويصب أحدهما كأسا يقدمه للايطالي الذي لا يتمكن من فعل ذلك بنفسه لأن المنضدة موجودة خلف كرسيه ، وفي كل مرة يشكر عازف المزمار زميليه بانحناءه محببة من راسه ، وكانت حركاتهم تتم بتلك الدقة التي تدهش دائماً لدى عميان كنز ـ ڤين ، حتى ليخال المرء أنهم مبصرون .

اقتربت من العميان الثلاثة لاستمع إليهم ، وبدا لي انهم يدرسونني عندما أصبحت في مواجهتهم وكأنهم أدركوا أنني لست من فئة العمال ، ولزموا الصمت « من أي بلد أنت ، يا لاعب المزمار ؟ » سألت .

ـ « من البندقية » أجاب الأعمى بلكنة إيطالية .

ـ هل ولدت ضريراً أم أن العمى أصابك نتيجة . . .

ـ نتيجة حادث ، إنها « كُمنَة»(1) لعينة » أجاب بحدّة .

ـ البندقية مدينة جميلة ، لقد تملكتني الرغبة دائماً بزيارتها .

بدت الحيوية على سحنة الشيخ وتحركت تجاعيده وغلب عليه التأثر ، وقال لي « إن ذهبت معك إليها فلن تضيع وقتك » .

---

(1) الكمنَة او الكَمَه Amaurosé : آفة في طبقات العين تحدث عن قوة نابذة او فرط توتر شرياني او بيلة آحينية أو هيستريا الخ ... (المترجم)

ـ قال لاعب الكمان : « لا تحدثه عن البندقية وإلا بدأ دوجنا(١) قصة طويلة ، خاصة وأن قنينتين في قمقمه ، هذا الأمير .

ـ وقال الصافر بالشبابة « هيا الى العزف ، أيها الأب كنار .

وراح الثلاثة يعزفون ، لكن خلال الوقت الذي كانوا ينفذون فيه اربعة رقصات كدريل ، بدا وكأن البندقي يتلمسني ولعلّه ضمن ما أثار فيّ من اهتمام زائد ، فقد زال عن هيئته تعبير الكآبة البارد ، ولا اعلم أي أمل أفرج أساريره وسال كشعلة زرقاء في تجاعيده ، فابتسم ومسح جبينه ، هذا الجبين الجريء الرهيب ، اخيراً بدا مرحاً كرجل يمتطي صهوة حصانه .

ـ كم عمرك ؟ سألته .

ـ اثنتان وثمانون سنة .

ـ منذ متى وانت أعمى ؟

ـ « منذ نحو خمسين عاماً » ، أجاب بلهجة تبدي أسفاً لا يقتصر فقط على فقدان بصره ، وإنما أيضاً على قدرة كبيرة جرد منها .

ـ لماذا يسمونك إذاً الدوج ؟ سألته .

ـ آه ! إنها هرجة ، فأنا مواطن من البندقية وبذلك أكون دوجاً كبقية سكانها .

ـ ما اسمك إذاً ؟

ـ هنا يسمونني الأب كاني ، ولم يكتب اسمي في السجلات بغير هذا الشكل أما بالإيطالية فاسمي ماركو فاسينو كان أمير ڤاريز .

---

(١) الدوج Doge : هو الرئيس المنتخب في جمهورية البندقة القديمة (المترجم) .

ـ كيف انت من سلالة قائد المرتزقة الشهير فاسينو كان الذي انتقلت فتوحاته الى أدواق ميلانو .

ـ « فعلاً ، في ذلك الزمن لجأ ابن كان الى البندقية كي لا يقتله آل فيسكونتي ، وقد سجل في الكتاب الذهبي ؛ لكن لا يوجد الآن كان : إلا في الكتاب » وبدت منه حركة مرعبة تعبر عن ولاء وطني زائل وقرف من الأشياء البشرية .

ـ « لكن إن كنت من أعيان البندقية ، فيجب أن تكون غنياً ! ؟ فكيف فقدت ثروتك .

عند هذا السؤال رفع راسه نحوي بحركة مأساوية فعلاً كأنه يريد ان يتأملني واجابني : « في التعاسات » .

لم يعد يفكر بالشراب ، ورفض بحركة من يده كأس الخمر الذي قدمه إليه في تلك اللحظة الصافر بالشبابة ، ثم خفض رأسه .

هذه التفاصيل لا تقنع بطبيعتها فضولي ، وخلال رقصة الكدريل التي عزف موسيقاها هؤلاء الثلاثة ، تأملت النبيل البندقي العجوز بالمشاعر التي تهز شاباً في العشرين من عمره . كنت أرى البندقية والبحر الأدرياتيكي ، رأيتها خراباً في ذلك الوجه الخرب ، تنزهت في تلك المدينة الغالية على سكانها ، ذهبت من الريالتو حتى القناة الكبرى ، ومن رصيف الاسكلافون حتى جزيرة الليدو وعدت الى كاتدرائيتها بكل سموها الأصيل ، وتأملت نوافذ الكازا دورو وكل واحدة منها بزخارف مختلفة عن الأخرى ، وتأملت قصورها العتيقة بكل ما فيها من بدائع المرمر ، أخيراً كل هذه العجائب الفريدة التي ينسجم معها العالم بقدر ما يلونها على هواه ، ولا يتخلى عن شاعرية أحلامه بمشهد الواقع .

صعدت في مجرى حياة سليل اكبر قواد المرتزقة ، باحثاً فيها عن آثار تعاسته ، واسباب هذا الانحطاط العميق مادياً ومعنوياً ، وهي

تزيد من جمال هذه الشرارات من الكبر والنبل المستشارة في تلك اللحظة ، كانت أفكارنا مشتركة دون شك ، لأنني أعتقد أن العمى يجعل التواصل الفكري أكثر سرعة لأنه يمنع الانتباه من أن يتشتت في أشياء خارجية .

لم يتأخر البرهان على دليل انسجامنا ، إذ توقف فاسنيو كان عن اللعب ، ونهض وتوجه نحوي وقال لي : « لنخرج » .

أحدثت حركته مايشبه رذاذاً كهربائياً مصوباً نحوي ، فأعطيته ذراعي وخرجنا .

عندما أصبحنا في الشارع قال لي : « أتريد أن تعود بي إلى البندقية ، أن تقودني إليها ، أتريد أن تثق بي ؟ إنك ستغدو بذلك أكثر غنى من البيوت العشرة الأكثر ثراء في امستردام أو لندن ، أكثر غنى من آل روتشيلد ، أخيراً أحد أثرياء « الف ليلة وليلة » .

خيل إلي أن هذا الرجل مجنون ، لكن قدرة في صوته جعلتني أذعن لها . ورحت منقاداً له حتى أوصلني إلى حفر الباستيل كأنه شخص مبصر ، حيث جلس على حجر في مكان منعزل جداً ـ كان فيما بعد رأساً للجسر الذي يربط قناة سان مارتن مع السين . جلست على حجر آخر أمام هذا العجوز ، وشعره الأبيض يلتمع كخيوط من فضة تحت ضوء القمر ، والسكون يسود على الضجة العاصفة البعيدة الوافدة إلينا من الجادات ، وصفاء الليل يسكب على هذا المشهد سحراً حقيقياً .

قلت ، « إنك تعد بالملايين شاباً ، وتعتقد أنه يتردد في أن يكابد ألف مشقة لاقتطافها ! الا تسخر بذلك مني ؟

رد علي بعنف : فليمتني الله دون اعتراف لغفران خطاياي ، إن كان في قولي لك غير الحقيقة . كنت في العشرين من عمري أي بمثل سنك الآن ، وكنت غنياً ، وفاتناً ، ونبيلا ، وبدأت بأولى الحماقات ، بالحب ، واحببت كما لم يحبّ من قبل حتى المجازفة بأن أوضع في صندوق بعد طعني بالخناجر دون أن ألقى إلا وعداً بقبلة ، بدا لي أن الموت في سبيلها حياة أخرى .

في العام ١٧٦٠ غدوت مغرماً بسيدة من آل ڤاندراميني في الثامنة عشر من عمرها متزوجة من نبيل من آل ساغردو ، أحد أغنى الأعيان ، رجل في الثلاثين من عمره يعبد امرأته ، كنت ومحبوبتي في براءة الملائكة عندما فاجأنا الزوج تناجي بأحاديث الغرام ، وكنت غير مسلح ، وخابت طعنته وهجمت عليه وشددت على عنقه بيدي الاثنتين وخنقته كما يخنق فروج ، واردت الهرب مع بيانكا ، لكنها ابت أن تتبعني ، آه هذه هي المرأة ! وهربت وحدي ، وحكِمتُ ، وصودرت أملاكي واعتبرت حقاً لورثتي ، لكنني حملت معي جواهري ، وخمس لوحات ملفوفة لتيتيان وكل ما أملك من ذهب ، وذهبت إلى ميلانو ، حيث كنت مطمئناً فقضيتي لاتهم حكومتها ، ثم اردف بعد توقف قصير . « ملاحظة صغيرة أود إيرادها قبل متابعة قصتي : يخيل لي ان نزوات المرأة تؤثر على جنينها وهي حامل به ، ولاشك أن أمي كانت مغرمة بالذهب وأنا في أحشائها ، فإن اشباع هوسي الأحادي بالذهب ضروري في حياتي ، إذ اجد في اي وضع كنت حاجة ملحة لحمل ذهب اداعبه باستمرار بين يدي ، وقد كنت اتقلد الحلي الذهبية في شبابي وأحمل معي دائماً مئتي أو ثلاثمئة دوكا ذهبية بعد أن تفوه بهذه العبارات اخرج من جيبه قطعتي دوكا ذهبيتين وأراهمالي .

ثم تابع : إنني أحس بالذهب ، حتى وأنا أعمى أتوقف أمام حوانيت الصاغة ، وهذا الهوى أضاعني ، فقد اصبحت مقامراً لألعب بالذهب . لم أكن مكّاراً فَمكِرَ بي ، وهكذا افلست ، وعندما فقدت كل شيء استبدت بي الرغبة لرؤية بيانكا : وعدت سراً إلى البندقية ، والتقيت بها ، ورتعت في سعادة خلال ستة اشهر ، مختبئاً عندها ، مشبعاً بغذائها ، بحيث فكرت ان أمضي حياتي في هذه المتعة . كان الآمر العام في المدينة يتودّد إليها ، وقد خمن بوجود منافس له ، هذا حَدس يُحسّ به في إيطالية ووضع الآمر العيون تراقبنا ، وفاجأنا ونحن في السرير ، يا للجبان ! لك أن تحكم كم كان الصراع مريراً بيني وبينه ، لم أقتله ، لكنني سببت له جروحاً بليغة ، لكن هذه المغامرة قضت على سعادتي ، فقد كان ذلك اليوم آخر لقاء لي مع بيانكا .

مرت علي ايام هنيئة ، وعشت في بـلاط لويس الخامس عشر بين اكثر النسـاء شهرة ، لكنني لم اجـد في أي مكان مزايا معبودتي فتاة البندقية ، ورقتها ، وحبها . كان للآمر اعام رجاله الذين استدعاهم ، فأحاطوا بالقصر وغزوه ودافعت عن نفسي متمنيا الموت تحت ناظري بيانكا التي ساعدتني على قتال الآمر . هكذا في السابق ؛ لم ترد هذه المرأة ان تهرب معي ، ولكن بعد ستة أشهر من السعادة ارادت ان تموت بموتي ، وقد تلقت في هذا الصراع عدة ضربات . أسِرتُ بعد أن ألقي علي معطف كبير فلففت به وحملت في جندول والقيت في بئر يستخدم زنزانة . كنت في الثانية والعشرين من عمري ، وكنت قد احتفظت بقطعة من سيفي في يدي بحيث لو أرادوا انتزاعها مني لوجب قطع معصمي ؛ وبصدفة فريدة، أو بالأحـرى بدافع الاحتياط ، خبأت هـذه القطعـة من الحديد في زاوية علّني أتمكن من الاستفادة منها . ضمدت جروحي ولم يكن أيٌ مهنا قائلاً ، في عمر الثانية والعشرين ، لا يبالي الانسان بشيء ، كانوا يريدون أن أموت بقطع رأسي علنا بعد حكم بالاعدام ، وتظاهرت بالمرض لأكسب الوقت ، وخلت أنني في زنزانة قريبـة من القنـاة ، ووضعت مشروعا للهرب بحفر الجدار واجتياز القناة سباحة مجازفا بالتعرض للغرق . هذه هي الاسس التي بنيت عليها آمالي .

في كل مرة يحمل لي فيها السجان ما آكله ، كنت أقرأ على الجدران اشارات مكتوبة مثل : جهة القصر ، جهة القناة ، جهة النفق ؛ وانتهيت الى ملاحظة مخطط لم أهتم به كثيرا لكنه قابل للتفسير وفق الوضع الحالي للقصر الأميري الذي لم ينته بنيانه .

بالعبقرية التي تخلفها الرغبة في الحصول على الحرية ، تمكنت أن افك ألغاز كتابة عربية ــ متلمسا سطح حجر بأصابعي ــ وفيها ينبىء كاتبها من سيخلفه انه قد نزع حجرين من الأساس الأخير ، وحفر نفقا بطول أحد عشر قدما ، ولأجل أن يستمر في عمله وجب عليه أن يفرش

على أرض الزنزانـة قطعاً من الحجر وبقايا الملاط ناتجـة عن اعمـال النقب والحفر .

ولما كان الحراس أو المحققون غير مهتمين بهذا البناء الذي لا يتطلب إلا مراقبة خارجية فإن وضع الآبار التي ينزل إليها ببضع درجات يتيح إعلاء الأرضية تدريجيا دون أن يلحظ الحرس ذلك . كان مثل هذا العمل غير مجد ، على الأقل بالنسبة لمن باشر به ، لأن عدم إنهائه يشير الى موت المجهول ؛ ومن اجل الا تضيع تضحيته الى الأبد وجب أن يعرّف بهـا اسير يفهم العربية ، وبما أنني درست اللغات الشرقية في دير أرمني ، فإن عبارة مكتوبة خلف ذلك الحجر أنبأتني بمصير هذا التعس ، الـذي مات ضحية ثرواته الهائلة التي طمعت بها البندقية واستحوذت عليها .

لزمني شهر لأصل الى نتيجة ، بينما كنت أعمل ، وفي اللحظات التي يرهقني بهـا التعب ، أسمع رنين الذهب امامي ، وافتتن بتصور الجواهر ! أوه ، انتظر ، في إحدى الليالي ، وصلت قطعة سيفي المثلومة الى حاجز من خشب ، وتمكنت بعد أن شحذت طرف هذه القطعة من فتح ثقب في الخشب ؛ واضطررت لأتمكن من العمل ان أزحف على بطني كأفعى ، واتجرد من ثيابي لأنقب كالخلد وانا امد يدي الى الأمام جاعلاً من الحجر بالذات نقطة استناد لي .

ما قبل عشية اليوم الذي يجب أن امثل به أمام قضاتي ، وخلال الليل ، أردت أن أبذل جهدا اخيرا ، وثقبت الخشب ، ولم تلق قطعتي الحديدية شيئا بعدها . تصور دهشتي وعيناي تتجولان في النفق ! كنت في التلبيسة الخشبية لقبو حيث اتاح لي النور الخافت أن الاحظ كومة من الذهب كان الدوج وأحـد العشرة في هـذا القبو ، وكنت اسمـع صوتيهما ، ودلني حديثهما الى أن الكنوز السرية للجمهورية مودعة هنا ، اعطيات الدوجات واحتياطيات أرباح نقود البندقية وعوائد إرسالياتها . لقد نجوت !

عندما أتى الحارس ، عرضت عليه أن يسهل هربي ويهرب معي على أن نحمل كل ما يمكن حمله ، دون تردد .

كانت هنـــاك سفينة قــد نشرت أشرعتها متوجهـــة نحو الشرق ، واتخذنا جميع الاحتياطات ، ويسَّرت بيانكا جميع الترتيبات التي امليتها على شريكي المتواطىء معي ، ولكي لا نثير الانتباه قررت بيانكا أن تلحق بنا الى سميرن(١) .

في الليل وسَّعنـــا الثقب ، ونزلنا الى كنوز البندقيـــة السرية . يا لذلك الليل ! أربعة أطنان من الذهب أمامي ، وفي الغرفة السابقة كانت الفضة مكومة كومتين لترك ممر في الوسط ليمكن اجتياز هذه الغرفة حيث القطع الفضية المكدَّسة تصل الى علو خمسة اقدام قرب الحائط . خيل لي أن الحارس قد أصابه الجنون ، إذ اخذ يغني ويقفز ويضحك ، ويثب فوق الذهب . هددته بالخنق إن أضاع الوقت أو أحدث ضجة ؛ لم يلحظ في فرحته منضدة تحوي الجواهر ، وهرعت إليها بمهارة لأملأ سترة البحار التي ارتديها وجيوب سروالي . يا إلهي لم أتناول إلا ثلث ما عليها . تحت تلك المنضدة كوّمت سبائك الذهب ؛ أقنعت رفيقي بأن يملأ منه أكياسا بقدر ما نتمكن من الحمل ، مبينا له أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا تكشفنا في ديار الغربة « فاللآلىء والحلي » ، والألماس يتعرف على صاحبها .

لم نتمكن ـــ على شدة جشعنا أن نأخذ إلا ألفي ليبرة ذهبية تطلبت منا ست رحلات بين السجن والجندول ، ورشونا حارس المنفذ المائي بكيس يحوي عشر ليبرات من ذهب ، أما بحارا الجندول فقد اعتقدا أنهما يخدمان الجمهورية . اقلعنا مع الفجر ، وعندما أصبحنا في عرض البحر ، وتذكرت تلك الليلة ، والأحاسيس التي شعرت بها ، وتراءى لي مجددا هذا الكنز الهائل الذي تركته والبالغ وفقا لتقديري نحـــو ثلاثـــين مليونا من الفضـــة وعشرين مليونا من الذهب وعـــدة ملايين من

---

(١) سميرن : مرفأ على بحر ايجه وهو مدينة ازمير التركية حاليا .

الالاميس واللآلىء والياقوت ، انتابتني رعشـة اشبه بالجنون ، إنني مصاب بحمى الذهب ، رسونا في سميرن ، ثم أقلعنا بعدها بسرعة الى فرنسة ، ولما صعدنا على المركب الفرنسي ، شاء لي الله أن أتخلص من شريكي ؛ في تلك اللحظة لم أكن أفكر بمدى هذه الاساءة العائدة للصدفة التي سرتني كثيرا ، فقد كنا متوتري الأعصاب الى درجة الحمق ، دون ان ننطق بكلمة ، ننتظر الوصول الى مأمن لنشعر بالغبطة وليس من المستبعد ان يكون ذلك الغبي قد اضاع صوابـه ، وسترى كم عاقبني الله . لم اشـعر بالاطمئنـان إلا بعـد أن بعت ثلثي الاميسي في لنـدن وامستردام وحولت ذهبي الى قيم تجارية . خلال خمس سنوات اختبأت في مدريد ، ثم جئت في العام ١٧٧٠ الى باريس باسم اسباني ، وعشت العيشة الأكثر بذخا بعد أن ماتت بيانكا . وسط متعي وملذاتي ، وبينما انا أرتع بثروة تقدر بستة ملايين أصبت بالعمى ؛ وما من شك في أن هذه العاهة كانت نتيجة مكوثي في الزنزانة ، ونقبي في الجدران الحجرية ؛ هذا إذا لم يكن تمكنني من رؤية الذهب قد أساء الى قوة نظري العادية وهيأني للعمى .

في تلك الفترة ، كنت مغرما بامرأة أردت أن أربط مصيري بها ، فأطلعتهـا على اسمي الحقيقي ، وكانت تنتسب الى إحـدى العـائلات القوية ، وقد وضعت أملي في الحظوة التي نلتها عند لويس الخامس عشر ، وأوليت ثقتي لهذه المرأة التي كانت صديقة للسيدة دو باري ، وقد نصحتني بمراجعة طبيب عيون شهير في لندن ، لكن بعد عدة شهور من الاقامة في تلك المدينة، هجرتني تلك المراة فيهايد پارك بعد أن سلبتني كل ثروتي وتركتني دون أي مورد ، إذ أنني وأنا المجبر على كتمان اسمي الذي يعرضني لانتقام البندقية لا أستطيع طلب مساعدة انسان ، وكنت أخشى البندقية ، وقد استثمر جواسيس تلك المرأة عاهتي ، وأضرب لك صفحاً عن المغامرات الجديرة بجيل بلاس(١) .

---

(١) جيل بلاس : بطل رواية من تاليف لساج (١٦٦٨ ـ ١٧٤٧) يعيش بالتحايل على مدى عشرين سنة (١٧١٥ ـ ١٧٣٥) مما أكسبه الحكمة ، وقد حوّلها سوفاج ولوريو إلى مسرحية كانت تمثل في الأبيغو ـ كوميك اثناء كتابة بلزاك لقصته .

مع مجيء ثورتكم ، الزمت بدخول كينز ـ ڤين ، حيث وضعتني تلك المرأة بعد أن احتجزتني في بيستر لمدة سنتين كمجنون ، ولم أتمكن من قتلها فأنا لا ارى مطلقا ، وكنت فقيرا بحيث لم أستطع أن اشتري قاتلا مأجورا . لو انني استشرت بنديتو كاربي ، حارسي ، حول موقع زنزانتي ، لكنت تمكنت من معرفة موقع الكنز ، ولعدت الى البندقية بعد أن قضى نابوليون على الجمهورية . مع ذلك ، وبالرغم من عماي ، لنذهب الى البندقية ، فسأجد باب السجن وسأرى الذهب من خلف أسواره ، وسأحس به تحت المياه التي تغمره ، لأن الأحداث التي أطاحت بقدرة البندقية وصلت الى درجة جعلت سر كنوزها تموت مع فندرامينو ، أخ بيانكو ، أحد الدوجات الذي عقدت عليه الأمل في مصالحتي مع مجلس العشرة ؛ وجهت مذكرات الى القنصل الأول ، واقترحت معاهدة مع امبراطور النمسة ، لكنهم جميعا اعتبروني مجنونا ! تعال لنذهب الى البندقية ، سنذهب إليها شحاذين ، ونعود منها أصحاب ملايين ، سنستعيد أملاكي ، وستغدو وريثي ، ستصبح امير ڤاريز .

أذهلني هذا الاعتراف الذي بدا لمخيلتي ذا ابعاد شعرية . أمام مرأى هذا الرأس الأشيب ومياه حفر الباستيل السوداء ، تلك المياه الراكدة كتلك الجارية في اقنية البندقية ، لم اجب بكلمة ؛ وخيّل لفاسينوكان دون شك أنني أحكم عليه كالآخرين ؛ وباحتقار مستخف بدرت منه حركة تعبر عن كل فلسفة القنوط . هذه القصة أعادته ، على ما يبدو إلى أيامه السعيدة في البندقية فتناول مزماره ولعب بأسى اغنية من أغاني البندقية ، لحناً جندولياً استعاد فيه موهبته الأولى ، موهبة النبيل العاشق ، كانت شيئاً يشبه **Super Flumina Babylonis** مما ملأ عيني بالدموع .

لو أن بعض المتنزهين المتأخرين مروا على طول جادة بوردون ، لتوقفوا دون شك ليستمعوا الى الصلاة الأخيرة لهذا المُبْعَد ؛ لزفرة الأسف لاسم ضائع تختلط معه ذكرى بيانكا .

لكن الذهب عاد الى الصدرة ، والهوى المشؤوم اخمد هذه الومضة من الشباب . واستأنف القول :

« هذا الكنز ، أراه دائماً ، يطربني كما في الحلم ، يرافقني اينما حللت ، تتوهج الاميسه من حوني ، فيزول عني العمى الذي تظنون انه يخيم على حياتي ؛ ويضيء الذهب والألماس ليلي ، ليل آخر فردٍ من سلالة فاسينوكان . لأن لقبي انتقل بعدها الى آل ميمي . يا إلهي ان عقاب المجرم قد بدأ باكراً ! السلام عليك يا مريم .... وراح في صلوات لم أسمعها » .

هتفت له عندما نهض « سنذهب الى البندقية » .

ـ « لقد لقيت إذاً رجلاً » صاح ووجهه يطفح بِشراً .

قدته وهو يتأبط ذراعي ، فشدّ على يدي عند باب كينز ـ في اللحظة التي كان فيها بعض الأشخاص يعودون من العرس وهم يصيحون بأصوات عالية .

ـ اتذهب غداً ؟ سأل العجوز .

ـ بمجرد أن نجمع بعض المال .

ـ « لكن يمكننا ان نذهب سيراً على الأقدام ، وسأستجدي في الطريق ... ! انني صلب ورؤية الذهب تجدد الشباب » .

توفي فاسينوكان خلال الشتاء بعد أن عانى السقم والضنى مدة شهرين . لقد أودت بالمسكين نزلة وافدة .

باريس ـ آذار ١٨٣٦

دراسة حـول القصـة والمؤلف

اعداد : اندره لوران

فاسينوكان قصة قصيرة ألفت في يوم واحد ، ونشرت لأول مرة في **وقائع باريس** بتاريخ ١٧ آذار ١٨٣٦ ، وتظهر في مطلعها وكأنها شـهادة سيرة ذاتية لكنها تتجه بعد ذلك في اتجاه مختلف ؛ فهذا الحوار بين مؤلف باريسي شاب في بداياته وموسيقي أعمى ، نبيل مـن نبلاء البندقيـة المخلوعين ، عجوز على حافة القبر ، يوضح المقولة الأساسية في الفكـر البلزاكي « الحياة تتناقص طرداً مع شدة الرغبات أو مـع الإسـراف في التفكـير » .

إن وحدة القصة المدرجة في **مشاهد من الحياة الباريسية** والمؤلفة من قسمين متباينين في الظاهر تستند الى هذه المسلمة التـي توجـه **الدراسات الفلسفية** .

في الصفحات الأولى ، نجد بلزاك ، يعاني العزلة في الماريـه ، تلك العزلة التي عرفناها من المراسلات والوثائق العائليـة التي وصلتنـا ؛ فكاتب الأسطر الأولى من **فاسينوكان** هو هذا الأونوريه ذو العشرين ربيعاً الذي يسكن منذ شهر آب ١٨١٩ في سقيفة من البناء رقم ٩ في شـارع لديغير ، والمشغول بظواهر غريبة مـن الفكـر (هواجس ، واحـلام ، وتخمينات ، وآخذات الخ ...)(١) وهو منصرف الى دراسات علمية

---

(١) آخذات Catalepsie : ضياع القلوصية الإرادية من العضلات ضياعاً موقتاً ، مع استعداد العضلات والجذع للاحتفاظ بالأوضاع التي تعطاها (المترجم عن معجم العلوم الطبية د. خاطر ، د. خياط) .

وفلسفية ، يبحث عن اكتشاف تفسير موحّد للعالم المادي والروحي ؛ وهو يريد أن يغزو المجتمع الباريسي بفضل معارفه وقدرته الذهنية .

هذا النموذج عـن شاب يمتلك قدرة روحية شبيهة بما يمتـلك بلزاك ، استهوته أكثر من مرة ، قبـل العام ١٨٣٦ ، ففيكتور موريون الأسطوري الذي كتب المؤلف سيرته الذاتية في **إنذار الفتى** (وهو العنوان الأول الذي فكر به لرواية **الثائرين الملكيين**) يتمتع « بمخيلة خارقة » تتيح له أن يتقمّص حياة أشخاص احلامه ، وأن يطبع بميسم الحقيقة حوادث الطبيعة وأحداث الحيـاة الاجتماعية التي تصنعها قراراتـه ؛ ورفاييل دي فالنتين بطل **جلد الكآبة** والمؤلف المتخيل **لنظرية في الإرادة** يفهم اللغة الخفية للأشياء التي تحيط به ؛ ولويس لامبـر « الذي ألف وهـو حدث آلية تركيز القوى البشرية الصعبة » يعرف سر الكلمـات والكلام « وقد منح نوعاً من الاستبصار » .

هذه **النفس الثانية** للروائي تلتقط تعقـد الوقائع ، وتتمثل بحـدة غريبة مختلف فصول الرواية ، وهي تجهل قسر المكان ، وتدرك مبـدأ وحدة العالم .

غير أن شخصية القاص ـ مع تماثلها وهـذه العبقريات التي تتعرض مغامرتها الروحية لفشل ذريع ـ لها في قصة فاسنيو كان فرادتها الخاصة ، فهي تلجأ الى قواها المعنوية ليس من أجل أن تقدّ وجوداً « عذباً وخادعاً » كرفاييل أو لتعيش تجربة ملائكية كلويس لامبر ، إنما لتدرك جيداً الحقيقة الاجتماعية لعصرها . وإن كان المؤلف قد أراد أن يلتقط « هذه المشاهد الرائعة المأساوية أو الهزنية ، هذه التحف التي تولدها الصدفة » التي يقدمها مشهد الشارع ، فذلك ليستوحيها في عمله الخلاق ؛ وبالرغم من أنه يعرف أن الإسراف في استخدام قدراته المعنوية يهدد وجوده ، فإنه يستخدم هبة استبصاره ليكتشف عصره ؛ فقصاص **فاسينو كان** يعرف طموح بلزاك في الكتابة « عن فرنسة القرن التاسع عشر ، هذا الكتاب الذي نأسف جميعاً لأن رومة ، وأثينا ، وصور ، وممفيس ، وبلاد العجم ، والهند ، لم يتركوا مثله ، للأسف ، عن حضاراتهم » .

كانت مقولة الملاحظة الحدسية تشغل معاصري الروائي ، فبلزاك قارىء سلسلة « **النساك** » لفيكتور جوزيف إيتين الملقب بجوي ، يمكن أن يكون قد تأثر ببعض ملاحظات فيزيولوجي الطبائع والعادات الباريسية في عهد رجوع الملكية : « اتغلغل في صميم ما اراه ، وقد وهبتُ نظرة اندساسية تظهر لي الأشخاص في ظاهرهم وفي باطنهم واكشف حتى في لحظات هدوئهم أسباب تصرفاتهم ؛ استمع الى لغة نظراتهم ، وحركاتهم وحتى إلى صمتهم » .

إن محاولة جوي تذكر بمحاولة مؤلف **فاسينو كان** الذي يصف أولاً « قدرته على أن يتقمص حياة الفرد » الذي يسلط عليه نظرته ، ويعطي بعد ذلك أمثلة اخاذة عن الاستعاضات الحدسية .

ذكرى قراءة أخرى يمكن أن توجه ريشة بلزاك عند انشاء مطلع **فاسينو كان** وهي قصة **الانكليزي آكل الأخيون** ، وقد اطلع بلزاك على مؤلف توماس دي كينسي في ترجمة الفريد دي موسيه ــ الشاب ــ التي ظهرت في العام ١٨٢٨ ، واستوحى منها سابقاً في « فنتازيته » المعنونة « **افيون** »(١) وفي **جلد الكآبة** ، وسيتذكرها في **ماسيميلا دون** ، وهي قصة موسيقية ، فينيسية ، **لاحقة لفاسينو** كان ؛ فبعد أن يبين المسرات المتحققة في الأوبرا تحت تأثير الأفيون « الذي يزيد من قدرات الروح » يكتب توماس كينسي :

« لكن متعة أخرى لا يمكن أن أحس بها إلا مساء السبت ، وهي تتصارع مع حبي للمتعة الأولى ... ليس لدي أي عمل يتطلب الراحة بعده ، ولا أية أجرة اتقاضاها ، هذا واقع أيها القارىء البصير . لكنك تعرف أن هناك أرواحاً رحيمة تحب أن تشارك الفقراء آلامهم وتواسيهم ؛ أما أنا فأحب مشاركتهم في حسراتهم ... فأذهب دون أن أنظر الى الاتجاه ، أو المسافة ، الى جميع الساحات ، وجميع أماكن المدينة ،

---

(١) نشرت في مجلة كاريكاتور بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٨٣٠ تحت اسم مستعار هو « الكونت اليكس دي ب » .

التي يأتي إليها الفقراء مساء السبت ليتقاضوا أجرة الأسبوع ؛ أكثر من عائلة تتكون من رجل واحدة وامرأته ، واحياناً مع واحد او اثنين من أولاده ، تتشاور عن كيفية تمضية النهار ، وعن مسراتها ، ومتاعبها ، تتحدث عن أسعار ضروريات العائلة . شيئاً فشيئاً ائتلفت مع رغباتهم ، وورطاتهم ، وآرائهم . أحياناً يمكن أن نسمع تمتمات تذمر ؛ لكن في الغالب لا نجد إلا التعبير الأخرس أو الصريح عن الصبر والرجاء ، والطمأنينة . اينما تسنح لي الفرصة دون أن أسبب مضايقة ، أشارك في الحديث ، فيلقى رايي في الموضوع المناقش ، أو المثار بذكاء ، كل ترحيب ؛ فإذا كانت الأسعار قليلة الارتفاع ، أو رؤي أن ثمن البصل او الزبدة سينخفض فإن ذلك يسعدني ، غير انني في حال العكس ، اترك المكان وأسأل أفيوني المواساة .

من المؤكد أن المتعة الأنانية في معاشرة بؤساء لندن قد تحولت سريعاً لدى كنيسي الى تعاطف عميق مع الفقراء ، غير أن شدة التقمص النفسي هي اكبر بكثير عند قصاص فاسيو كان ، الشاب العائش بزهد في شارع لديغير منها لدى مدمن الأفيون الانكليزي ، وكينسي لم يقترن إلا بالفكر مع هموم البروليتاريا أما بلزاك فهو يشعر « بأسمالهم فوق ظهره » .

وهكذا من المناسب الا نعطي إلا دوراً محدداً للمصادر الكتبية في إضاءة تكوّن القسم الأول من **فاسينو كان** . ان تكون كاتباً كبيراً ، جان جاك ومكتب خطوط الطول هذه هي القضية » هذا ما كتبه بلزاك في **نظرية المنهج** في العام ١٨٣٣ ، وهو بفضل مواهبه الاستثنائية التي يجهد في تحديدها ، يتوصل الى التوفيق بين متطلبات متناقضة في الظاهر ، فيؤكد في مقدمة **جلد الكآبة** بأن « نوعاً من الاستبصار » يسمح للكاتب « بأن يخمن الحقيقة في جميع أوضاعها الممكنة ، أو بتعبير أفضل ، لا أعلم أي قدرة تنقلهم الاى المكان المناسب حيث يريدون أن يكونوا . إنهم يكتشفون الحقيقة بالمماثلة ، أو يرون الشيء الواجب وصفه ، سواء بإتيان هذا الشيء اليهم أو بذهابهم هم نحوه » .

هذا النص النظري الهام يؤكد ايضاً على الدور الذي تلعبه الذاكرة ، وعلى القدرة في استحضار « الأشياء الملاحظة سابقاً » في سيرورة الخلق الفني .

إن دراسات التكون المنشورة خلال هذه السنوات الأخيرة تتيح تقدير هذه التصريحات حق قدرها ؛ فبلزاك لم يخلق ابداً من عدم ، بل يستخدم مواهبه كصاحب رؤيا ، فيضم مختلف العناصر الملاحظة مباشرة في الواقع ، ليحولها ، ويشطرها ويركبها تحت إملاء مخيلته ، وتصوراته السابقة ، وأوهامه الداخلية ، مع تقيده بالمتطلبات الجمالية للملهاة انسانية .

إن بطل القصة الإيطالي الملقب « دوج » من قبل رفاقه ، الذين يسخرون منه . لا يمت بصلة باستثناء اسمه إلى فاسينو كان التاريخي (١٣٦٠ ــ ١٤١٣) ، قائد المرتزقة البيومونتي الشهير الذي لا دور له ابداً في تاريخ البندقية . إن بعض بيانات النص المتعلقة بالمصير البائس لكان تتيح الافتراض بأن بلزاك ، مؤلف **((المبعدين))** في العام ١٨٣١ ، والصديق الوفي لفيدوبوني ــ فيسكونتي ، الحساس للجو المتعاطف مع الايطاليين في السنوات ١٨٣٠ ــ ١٨٣٣ (فمجلة **المنفي** ظهرت في العام ١٨٢٣ ، وترجمة سنوات **سجني** لسيلفيو پليكو نشرت في العام ١٨٣٣) ، قد صادف احد المهاجرين فتذكره وهو ينشيء قصة الفينيسي . لكن يحتمل أن الروائي قد فكر عند وضع هوية شخصيته القصصية بآل كان كان وهم عائلة إيرلندية كان يساكنها في تور في السنوات الأولى لاقامته في أندر ولوار ؛ وقد تحول الاسم الانكليزي كَانْ (وهو يلفظ كانِه في تورين) الى اسم إيطالي . وهذا يقودنا الى البحث عن الأصول التورينية للقصة التي صنفت في العام ١٨٤٣ تحت عنوان **الأب كانه** في **أسرار الأقاليم** وهي مجموعة مختارات نشرها هـ. سوفرين .

الواقع أن في بداية رواية **امرأة في الثلاثين** وفي وصف يتصدى لالتقاء نهر السيز مع اللوار (وقد نشر في البدء في مجلة لا سيلويت بتاريخ

شباط ١٨٣٠) تقترن تور بالبندقية : « عبر الأغصان الطريقة المورقة التي تغمر الجزر ، وفي أقصى اللوحة ، تبدو تور كالبندقية تخرج من أحضان الماء » ؛ من جهة أخرى نلاحظ أن قصة **المعلم كورنيليوس ،** المتولدة من زيارة لبلزاك لپلسي ـ لي ـ تور تشترك في أكثر من نقطة مع قصة **فاسينو كان ،** المصاب بالعمى « للاسراف بتمكنه من الرؤية » ، وهذا ما يذكر بكورنيليوس هو غورست الذي انقلب هواه للذهب ضده ، ففدا هذا الساهي الفلمندي في آن واحد سارقاً ومسروقاً ، وفاسينو هو أولا سارق قبل أن يجرد من ثروته ، وكل من هاتين الشخصيتين يدفعه شيطان داخلي ليبحث عن أملاكه الضائعة . والمعلم كورنيليوس . الذي يخشى تصرفاته في الحالة الثانية من النوم يقضي من هول العذاب الذي خلقه لنفسه ، بينما فاسينو كان الذي أضعفه التوق الى الذهب يموت بعد سقام شهرين .

خارج مقولة الكنز المخبوء المسبب لضياع من يريدون الاستيلاءعليه، فإن مصدراً أدبياً مشتركا يربط بين القصتين ، ويبدو أكيداً أن بلزاك قد تذكر بمناسبة المعلم كورنيليوس، الجواهري رينه‌كارداك بطل **الآنسة دي سكودري** لهوفمان ، المدفوع بجشع إجرامي يقتل على أثره زبائنه ليستعيد الحلي التي سلمها لهم . ومن أجل أن يشرح إلى صانعه أوليفيه، الشاهد العفوي لإحدى جرائمه ، نشأة هذا الهوى الإجرامي ، يكشف المعلم كارداك عن أن أمه في فترة حملها به ، شعرت برغبة لا تقاوم في امتلاك قلادة من الحجارة الكريمة كان يتزين بها سيدها الشاب الذي لم تستجب لملاحقاته ؛ وقد قال :

« إن اناسا ذوي علم يتحدثون كثيرا عن إحساسات غريبة تصيب النسوة في فترة حملهن وعن تأثير هذه الاحساسات على الجنين الذي يحملنه في أحشائهن » والحال أن فاسينوكا ن قد أبدى ملاحظة مماثلة ليبرر هوسه الأحادي ؛ وقد قال « سواء كانت نزوات المرأة تؤثر أو لا تؤثر على طفلها في فترة حمله أو تكونه ، فمن المؤكد أن أمي كانت تهوى الذهب خلال حملها » . عدا عن ذلك ، يعترف كارداك بأنه ، منذ

حداثته ، كان يفضل حلي الذهب على الألاميس ، وفي سن المراهقة كان يسرق الذهب والحلي : « كنت اميز بالفريزة الحلي الحقيقية من المزيفة، كما يمكن أن يفعل الخبراء الأكثر مراسا » كذلك فاسينو كان ، في شبابه، كان يتقلد دائما الحلي ، وبعد ان أصبح أعمى ، كان يتوقف أمام متاجر الصاغة . »

لنلاحظ اخيرا أن المذكرة الايضاحية التي أضافها هوفمان الى روايته يمكن أن تشرح التدرج بين الفرنسي كارديلاك والفينيسي فاسينو كان .

البندقية ، في فكر بلزاك ، بالرغم من اقترانها بتور ، مدينة شيطانية ، مدينة السجون ، والماء الآسن ، والجريمة الخفية والانتقام ، تماثل في ذلك باريس : ومؤلف **جلد الكآبة** يقارن السقيفة التي يسكنها رفاييل دي فالنتين « بقفص جدير برصاص البندقية » ويذكر في **فراغوس** ، في معرض حديثه عن جزيرة سان لويس ، هذه «الفينيسيا الباريسية » ، بأن شوارع هذا الحي توحي الى المتنزه « بكآبة عصبية » ؛ وفي **فاسينو كان** تذكره مياه حفر الباستيل السوداء بمياه أقنية فينيسية الآسنة .

هذه الصور تلفت انتباه القارىء الى الروابط العميقة الموجودة بين القسم الأول « الباريسي » والقسم الثاني « الڤينيسي » في الرواية ؛ والقسمات العامة المميزة للكاتب لقاطن في شارع لديفير والعجوز فاسينو كان .

التشابه بين عمر القاص في العام ١٨٣٦ وعمر فاسينو كان في ١٨٢٠ يعطي للشباب الشعور بأنهم في عصر يتذكرونه ، وهذا مايلفت النظر مباشرة ، فمؤلف القصة يرتد إلى ماضيه وهو في سن العشرين عندما

---

(١) استعملنا اسمي فينيسية والبندقية لصمدنية ولجأنا للاسم الأول عند النسبة خاصة .

صادف فاسينو كان ، وهذا الأخير يصرح له بأنه كان في مثل عمره عندما بدأ مغامراته الڤينيسية ، ومثقف الماريه الشاب ، الباحث عن المآسي البشرية الدفينة في « مدينة الآلام هذه » يمتلك هبة الاستبصار « وحلم الرجل اليقظ » وهو يتوصل إلى التقمص نفسياً في المارة الذين يلاحظهم ، وفاسينو كان من جهته لديه القدرة على الإحساس بالذهب « وهو يقظ كما في حلم » ويرى الذهب والالاميس بهذه الحدة ذاتها التي تميز الرؤية الحدسية لمحدثة الشاب. والشخصيتان لا يرتدان إلى الشرق الأسطوري، فملاحظ طبائع الضاحية يمارس موهبته الاستثنائية على طريقة درويش **الف ليلة وليلة** ، والڤينيسي يعده بالغنى كما في **الف ليلة وليلة** وهكذا تتلاقى أفكارهما بسرعة لأن العمى يجعل الاتصالات الذهنية أكثر سرعة بتجنيب الانتباه من التشتت على أشياء خارجية .

من جهة اخرى « كل شيء متناسق في الانسان وفقا للافكار الذي يستشهد به بلزاك في **نظرية المنهج** فنعمة الاستبصار والقدرة على رؤية الذهب بعين الروح تتغذيان من المنبع الطاقي ذاته ، منبع الموانع العصبية ، لكن اللجوء المفرط إلى هذه القوة في الكائن الداخلي تهدم الحياة النفسية وتدمر الجسم ، وقد شعر القاص بجلاء بأنه مهدد بالاختلال العقلي فتساءل : « من اين هذه الهبة ؟ اتكون استبصارا ؟ او احدى هذه المزايا التي يقود اسرافها الى الجنون ؟ ، وفاسينو كان ، وقد دمرته رغبته المفرطة والمستبدة للذهب يعترف : « انا لا اشك بأن هذه العاهة هي نتيجة مكوثي في الزنزانة ونقبي للجدار الحجري ، هذا إذا لم يكن تمكني من رؤية الذهب قد حملت الي فرط قدرة بصرية هيأتني لفقدان نور العينين » . هذا الافراط الذي نال منه جسمياً اضعفه ايضاً فكريا، ففي قصة مغامراته المتحمسة يستعمل سبع عشرة مرّة كلمة **ذهب** وست مرات كلمة **كنز** ، وتعابير عديدة تحوي صوت « الذهب » الذي يعبر عن قوة هيجانه المدمر . والاستعارات الضوئية المستخدمة من قبل بلزاك في معرض حديثه عن الأعمي الڤينيسي (مثل بريق لاهب ، وحريق اليأس واللهب الأزرق) يكشف عن غرائز لا تقهر تسيطر على الشخصية .

يظهرمنذ بدء القصة وحتى نهايتها تفاهم عميق وتلقائي بين القاص ومخاطبه وهذا الأخير ، يذكر ، الى حد ما ، ببلزاك ذاته ، المستكشف المستقبلي لمناجم الفضة في سردينية ، وقد تسلط عليه وفقا لتعبير تيوفيل غوتيه « حلم ثروة مفاجئة تهيؤها وسيلة غريبة عجيبة » .

هذه الذات الثانية الجديدة المصابة بالعمى لفرط قدرتها البصرية ، التي لا تتمكن من التحكم بمخيلتها المطلقة العنان ، تصور وتحرض في آن معا الخوف من الجنون الذي شعر به الروائي منذ إبداعه لويس لامبر .

« أن ينافس الحالة المدنية » ، وينسب لنفسه قدرة دميورج محرك الكون، مشروع قلق للكاتب، يريد أن يحياه ، لأن بلزاك يطبق نظرية « الفكر القاتل على وضعه الخاص بالذات ، وهو يعلم أن موهبة الحدس لديه ، التي تتيح له أن يكتشف علاقات غير ظاهرة للملاحظ العادي تنزح من منبع الطاقات الحيوية ذاته . غير أنه يخلق شخصية مدعي الرؤى ، سارق الكنز الخائر القوي الذي تستعصي عليه الكلمات ، أمكنه ان يحقق تصوره الوهمي للغنى ويعيش الجنون الذي يخشاه ، ويسيطر في الوقت ذاته على الخشية من التشوش النفسي ، ويعطي لأحلامه اليقظة شكلا تفقد فيه اي طابع شخصي يمكن أن ينفر الغرباء ويصبح مصدر متعة للآخرين .

فاسينو كان قصة واقعية ، وقصيدة خارقة تستوحي أسطورة الذهب وهو في بؤرة الاهتمامات الذهنية والروحية التي تعهدها مؤلف غوبسك ؛ الذهب الذي يمثل «كل القوى البشرية» ويؤمن «امتلاك العالم بدون تعب » . لكنه يجسد قوة شريرة مدمرة للشخصية منافية للحب والانفتاح البشري .

وبلزاك ، بفضل اهتمامه بالأساطير المعاصرة ، يتوصل لاعطاء معنى فلسفي لصورة الحاضر الكبيرة التي يصفها في مؤلفاته . كل شيء اسطوري ورمز في فاسينو كان .. هذه التحفة من عدة صفحات هي صورة المهاة الانسانية .

الفهرس

٢٥٠٠ ط ١٩٩٩/١٢/١

يشرح بلزاك نفسه حقيقة رواية الأميرة دي كادينيان فيكتب:

إنها أكبر كوميديا أخلاقية وُجدت. إنها تراكم أكاذيب تمكنت بواسطتها امرأة في السابعة والثلاثين من العمر هي الدوقة التي صارت بالوراثة أميرة، دي كادينيان، (ان تظهر بمظهر قديسة وفاضلة ومتيمة أمام عشيقها الرابع عشر) وهي نفسها كانت تصرح بأن (مولي) عشيقها الأول وهواها الوحيد الحقيقي.

الرواية هي مصير الارستقراطية في مرحلة بدأت تسيطر على البرجوازية. ڤاسينوكان عازف مكفوف في ثلاثي للمكفوفين، يتذكر أنه عندما كان شاباً كان يعشق الذهب ويسعى إليه بكل الوسائل ڤاسينوكان شخص حقيقي من ڤينيسيا.

كان في يوم من الأيام صديقاً لبلزاك الذي تمكن بفضل موهبته من أن يجمع بين قصة هذا الشاب وأسطورة الذهب الذي يمثل قوى البشرية كلها. وهو في الوقت ذاته قوة شريرة مدمرة.

الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل ٢٠٠ ل.س